علم
الأخلاق المسيحية

دكتور القس فايز فارس



مقدمة

هو الأول من نوعه فى اللغة العربية الذى يعالج موضوع الأخلاق المسيحية باعتبارها علما ، فهناك العديد من الكتب عن الفضائل المسيحية لكن هذا الكتاب يتميز بدراسة الموضوع لا بأسلوب وصفى أو وعظى بل بأسلوب علمى .

فهو يدرس أسس السلوك والأخلاق المسيحية وعلاقتها بفلسفة الأخلاق ليبين مدى تميز الأخلاق المسيحية وسموها على كل النظريات ، ويتعرض إلى العلاقة بين الإيمان والعقل ليوضح أن لا تعارض بينها .

وقد خصص المؤلف جزءاً خاصاً من كتابه للحديث عن الإنسان فى المسيحية مبيناً سمو الإنسان المخلوق على صورة الله والمزود بالقدرة على التمييز بين ما هو أخلاق وما هو لا أخلاق .

ولا ننسى أن نشير إلى الكاتب الذى قضى سنوات طوال يعد هذا الكتاب بل كان علم الأخلاق المسيحية هو موضوع رسالته للدكتواره فى اللاهوت ، وقد وضع الكاتب فى هذا المجلد ذوب قلبه وتفكيره . وإنك إذ تقرأه تحس بأنك قد ازددت ارتفاعاً وعمقاً فى علمك وروحانيتك .

نأمل أن تستمتع بهذا الكتاب وأن يدفعك لإعادة التفكير فى كثير من نواحى السلوك المسيحى على المستويين الفردى والجماعى .

دار الثقافة

فى هذا الكتاب

الباب الأول

مدخل إلى دراسة الأخلاق المسيحية

الباب الثالث

الإنسان فى المسيحية

الباب الأول

مدخل إلى دراسة الأخلاق المسيحية

الفصل الأول

ماهية علم الأخلاق

عُرِض فى القاهرة فيلم عنوانه « الحكم آخر الجلسة » ، يحكى قصة شاب أحب فتاة حبا شديداً ، وانتهى بهما هذا الحب إلى الزواج ؛ وكانت الفتاة طبيبة ذكية درست الدكتوراه فى الطب متخصصة فى فرع الأمراض الوراثية . وحملت الطبيبة فكان هذا مصدر سعادة كبيرة لها ولأسرتها ولأسرة زوجها ، وكان الجميع يستعدون لقدوم الطفل المنتظر ويجهزون له ملابسه وألعابه وحجرته ؛ لكن حدث أن علمت الفتاة الزوجة عن طريق المصادفة ، بأن لزوجها أخاً مريضاً بمرض عقلى وراثى ، ومقيما بإحدى المستشفيات ، ثم أخذت تبحث فى سلسلة الأقارب . واكتشفت أن لزوجها عمّة مريضة بنفس المرض ، وأن شقيقة له كانت مريضة وانتحرت ؛ وهكذا تبين لها أن هذا المرض الوراثى يحاصر أسرة زوجها وأن الاحتمال الأكبر هو أن يكون الجنين الذى فى بطنها مريضاً بهذا المرض الذى لا يقضى على حياة المريض ولكنه يعذبه عذاباً شديداً – ففاتحت زوجها فى رغبتها فى أن تجهض نفسها ، اشفاقا على ذلك الوليد المنتظر ، ولكن زوجها رفض ، فقررت أن تفعل ذلك دون علم زوجها ؛ ولما حدث ذلك ثارت أسرة الزوج وعلى الأخص والده المتدين ، والذى كان ينتظر حفيداً له يحفظ استمرار شجرة العائلة . وأبلغ والد الزوج الأمر إلى النيابة متهما زوجة ابنه بجريمة الاجهاض ؛ لكن شقيقة الزوج وكانت محامية استطاعت أن تقدّر وجهة نظر زوجة أخيها ، فتطوعت بالدفاع

البسيط الذى قد يبدو فى نظر البعض تافهاً ، ولكن البعض الآخر يعتبرونه أساسياً ، مثل كسر نظام الطابور أمام شباك حجز تذاكر السكة الحديد ، أو اختلاس النظر إلى خطاب شخصىّ يقرأه الجالس بجوارك .

وتاريخ المجتمع الإنسانى حافلٌ بالنصائح التى أسداها الحكماء والمرشدون إلى الناس لتوجيههم نحو السلوك السليم . وقد كان الناس يتصورون أن علم الأخلاق هو مجموع هذه النصائح ، ومحاولة العمل بها – والواقع أن تطور تفكير الإنسان جعله لا يرضى أن يقف موقفاً سلبيا مكتفياً بقراءة هذه النصائح والارشادات ، ولكنه أصبح يفكر فى مضمون هذه النصائح ، **ولماذا** تقدَّم اليه ، **وما هو** الدافع إليها ، **وما الذى** يُلزمه بطاعتها ... وهكذا نرى أن الأخلاق أصبحت تفكيراً فلسفياً ، ولم تكتف بأن تكون إطاعةً لتفكير الغير ونصائحهم . لقد أصبح الإنسان يفكر فى المعايير أو المقاييس التى يحكم بها الفرد على عمل معيّن بذاته .

ومن الطبيعى أن يحاول الدارسون تعريف « علم الأخلاق » ، شأنهم فى ذلك شأن كل باحث فى أى علم من العلوم ، وقد حاول البعض أن يجدوا تعريفا مبسطا لعلم الأخلاق فعّرفوه بأنه « العلم الذى يبحث فيما ينبغى على الإنسان فعله » ، وهو تعريف قريب إلى الواقع لأنه يربط بين علم الأخلاق وإرادة الإنسان فى اختيار أفعاله . إلا أننا نلاحظ أن أنواع الاختيار ليست كلها بالضرورة مرتبطة بالأخلاق . فمثلا اختيار المالك لرسم هندسى معّين للمنزل الذى يريد بناءه ، لا يعتبر عملاً متصلا بالأخلاق بل بالناحية العملية والجمالية ؛ كذلك اختيار الفتاة لنوع ولون الرداء الذى تشتريه .

ولا نستطيع أن نقول إن العمل الأخلاق هو الاختيار المتعلق بالغير فقط ، ذلك لأن بعض أنواع الاختيار المتعلقة بالغير لا نعتبرها عملاً أخلاقياً ، مثل اختيار الأب لنوع السكن الذى يسكنه ابنه المغترب ، والمفاضلة بين سكن وآخر ؛ كما أن بعض الاختيارات المتعلقة بالفرد ذاته ، تعتبر عملاً أخلاقياً مثل إدمان بعض العادات والمكيفات ، ومثل الكذب حتى إن لم يتعلق بالغير مثل رواية أعمال بطولية وهمية ينسبها الإنسان إلى نفسه على سبيل التفاخر .

إذاً فهناك أنواع من الاختيار نحكم عليها حكماً أخلاقياً ، وأنواع أخرى لا نحكم عليها حكماً أخلاقياً ... بل أن الأمر ليس بهذه البساطة إذ اننا كلما تعمقنا فى بحث مسألة اختيار ما من مختلف الزوايا ، شعرنا باختلاف الآراء بشأنها والحكم عليها طبقا لمعايير متنوعة .

لذلك فلنطرح جانباً محاولة البحث عن تعريف لعلم الأخلاق – ولو مؤقتاً – حتى تتضح لنا صورة هذا العلم فى نسبته إلى سائر العلوم ، وحتى نلقى نظرة إلى المعنى العقلى الذى تحمله إلى عقولنا لفظة « أخلاق » .

بوجدانك ، فتمد يدك إليه بمعاونة نقدية أو مادية ؛ أو تفكر فى وسيلة تعالج بها الفقر عند جميع الناس .

والعلوم المعيارية تضع المعايير أو المقاييس التى تضبط هذه الجوانب من حياة الإنسان :

(أ) فالتفكير السليم تضبطه قواعد **علم المنطق** ، الذى يرشد الإنسان إلى كيفية التفكير الخالى من الأخطاء ، فيعرف كيف يميّز بين الحق والباطل وكيف يتوصل إلى نتائج سليمة بالقياس والاستقراء . وعلم الحساب والرياضة نوع من المنطق .

(ب) وما يلتزم به الوجدان يحدده **علم الجمال** (Aesthetics) . وهو الذى يضع أسس التناسق والذوق فى الوجود الطبيعى والإنسانىّ .

(ﺟ) وما تلتزم به الإرادة يحدده **علم الأخلاق** إذ أنه يضع المعايير التى يحكم بها على السلوك الإنسانى .

كانت هذه محاولة لتحديد مكان علم الأخلاق بين العلوم الإنسانية ، ولاشك فى أن الفواصل بين العلوم ليست قاطعة وإنما تتداخل العلوم بعضها مع بعض ، كما أن تطور المدنّية ومشكلاتها ، تفتح مجالاً كبيراً لهذا التداخل كما سنرى فيما بعد .

(٢) علم « الأخلاق » فى اللغة :

من البديهيات أن اللغة تنقل المعنى ، وتعبّر عن القيم المختلفة للمعانى . لذلك كان من الضرورى أن نشير ولو بإيجاز إلى معنى اللفظ « أخلاق » فى اللغات المختلفة ، وفى اللغة العربية بالذات ، ذلك لأن المعنى الذى تنقله لغة بعينها إلى العقل ، قد يختلف عما تنقله لغة أخرى .

ففى اللغات الأوربية ، المشتقة من الأصول اللاتينية واليونانية ، توجد كلمتان تشيران إلى « الأخلاق » : الكلمة الأولى « MORALS » وهى مشتقة من اللفظ اللاتينى « Mos » ومعناها التعود على شىء ما .

والكلمة الثانية « ETHICS » وهى مشتقة من الكلمة اليونانية « ethos » ومعناها « سكن » أو « كرسى ثابت » ، والمعنى يشير أيضاً إلى الثبات أو الاعتياد فى السلوك[1] .

وقد اصطلح كثيرون من الناطقين باللغات الإفرنجية على أن يخصصوا الكلمة الأولى « Morals » لوصف أنواع السلوك الأخلاقى ؛ بينما استخدموا الكلمة الثانية « ethics »

وقد أجرى الكاتب دراسة خاصة وبحثاً ميدانياً بين عيّنة عشوائية من المصريين ضمت مسلمين ومسيحيين ، وظهر من هذه الدراسة أن جميع المصريين تقريباً يعتقدون أن من لا دين له ، لا أخلاق له ، وهذا يؤكد الارتباط الوثيق بين الدين والأخلاق فى مجتمعنا .

وقد جاء فى قاموس « محيط المحيط » ما معناه أن ملامح النفس الداخلية ، أى أخلاق الإنسان ، قد تكون صالحة أوشريرة ، وعلى أساسها يكون الثواب أو العقاب ، وأن خوف الله والخلق الكريم هما طريق الناس إلى الجنة ، لذلك جاء الأنبياء ليحققوا مكارم الأخلاق[٣] .

وقد كان من نتائج هذا الأرتباط الوثيق فى الفهم العربى بين الدين والأخلاق ، أن غالبية من يتساءلون عن مدى أخلاقية عمل معّين ، لا يكون سؤالهم : هل هذا العمل أخلاقىّ أم غير أخلاقىّ ؟ لكنهم عادة يسألون السؤال بصيغة أخرى وهى : هل هذا العمل حرام أم حلال ؟ وبديهى أن التعبيرين « حرام » و « حلال » لهما مدلول دينى لا يتسع المقام هنا للخوض فى البحث فيه ؛ إنما نكتفى بأن نذكر أن الكلمة « حرام » فى اللغة العربية لها فى الأصل مدلول طقسىّ . ففى العصر السابق للإسلام كان العرب يعتبرون بعض الأشياء أو الأماكن من « المحّرمات » أى أن لها « قداسة » خاصة ؛ وبذلك كانت الأشياء المحرّمة لا يجوز الاقتراب منها إلا فى مناسبات خاصة وبطقوس معينة ؛ وبذلك تكون الكلمة شبيهة بالكلمة العبرانية « مقدّس » . وبعد ظهور الإسلام احتفظت الكلمة بنفس المعنى فى بعض الاستخدامات مثل « الشهر الحرام » و « البيت الحرام » ، لكنها ابتدأت أيضاً تتخذ معنى آخر إذ تصف العمل الذى تنهى عنه الشريعة وتعاقبه ، وبذلك اتخذت الكلمة معنى أخلاقياً ، وأصبح الشخص المتمسك بالأخلاق هو الذى تنسجم حياته من الداخل مع مشيئة الله تعالى ، فيبتعد عن كلّ ما حرّمه الله ، ويسعى أن يعيش فى دائرة ما أحلّه الله ، أو سمح به[٤] .

الفصل الثانى

الأخــلاق
فى التفكير الفلسفى

قبل أن نتقدم لدراسة « الأخلاق المسيحية » . نرى لزاماً علينا أن نستعرض شيئاً من الأخلاق فى التفكير الفلسفى أو ما يسمى عادة بالفلسفة الأدبية أو الفلسفة الأخلاقية (Moral Philosophy) .

وقد أشرنا فى مستهل حديثنا إلى أنه من الطبيعى أن يفكر الإنسان فى أمور هذه الحياة التى يحياها ، فى علة الحياة ، ولأسلوبها ، وهدفها إلى غير ذلك ؛ ولابد أن يتعرض الفكر الإنسانى لقضايا الأخلاق . وقد كان الفلاسفة الأولون يفكرون فى كل شيء تقريباً ، وفى كل العلوم معاً ، وكان من بين مباحثهم رأيهم فى الأخلاق . ولا نجد هذا الرأى منفصلا عن رأيهم فى الوجود أو الطبيعة أو السياسة ، فإن تفكيرهم كان مرتبطا بعدة موضوعات يترتب أحدها على الآخر . على أن الفلاسفة المحدثين صاروا أكثر تبويباً لتفكيرهم ونظرياتهم . وأهم ما شغل الفلاسفة هو مصدر الإلزام الخلقى ، وهل هو فى سلطة خارج الذات كالعرف والتقاليد وشرائع الأديان والقوانين الوضعية التى تضعها الدول لتنظيم العلاقات بين الأفراد والجماعات ، أم هو فى سلطة داخل الذات مثل العقل أو الضمير . وفى هذا المجال فكر الفلاسفة قديماً وحديثاً . وقد اتسع التفكير فى الأخلاق بشكل واضح وتعددت المذاهب

يعرف أنه كائن عاقل مفكر لابدَّ أن يحب الخير ويعمله ؛ ومن أدرك أن الشرَّ يتنافى مع طبيعته ، تركه ونفر منه .

ثم جاء **أفلاطون** فميَّز بين الجانب العاقل فى الإنسان ، والجانب الحسىّ فيه ، وقال إن صراعاً يحدث دائماً بين العقل والشهوة ، ولذلك فواجب الإنسان أن يتحرر من قيود الجسد ، ويتشبّه بالآلهة بقدر الإمكان ، ويُخضع الشهوات لصوت العقل وبذلك يتحقق الخير الأقصى للإنسان وهو السعادة .

ثم جاء **أرسطو** فتوسع فى شرح نظريته فى الأخلاق ، فقال إن لكل موجود وظيفة يؤديها وبمقدار أدائه لها يكون كماله . فوظيفة النبات هى النموّ ، ووظيفة الحيوان هى الحسّ ، ووظيفة الإنسان هى العقل . لذلك فكمال الإنسان لا يكون إلا بالتفكير السليم والتأمل العقلى والحكمة وفيها السعادة . وما دامت طبيعة الإنسان مزيجاً من العقل والحس ، فواجب العقل هو السيطرة على شهوات الجسم دون إماتتها ، والعقل هو الذى يضع القانون الأخلاق .

وبعكس سقراط الذى قال إن الإنسان يعمل الفضيلة بمجرد علمه بها ، قال أرسطو إن الفضيلة تكتسب بالمران ، وقد وضع أرسطو تعريفه المشهور للفضيلة بأنها « مَلَكَة اختيار الوسط العَدْل بين إفراط وتفريط كلاهما رذيلة » - فالمَلَكَة قدرةٌ فطرية ولكنها تنمو بالتدريب ؛ والوسط العدل ليس معناه الوسط الحسابى ولكنه الوسط الملائم - فأحياناً تكون الفضيلة أقرب إلى أحد الطرفين : الإفراط والتفريط ؛ فمثلاً الشجاعة وسط بين التهور والجبن ، وهى أقرب إلى التهور ؛ والكرم وسط بين الإسراف والبخل وهو أقرب إلى الاسراف ؛ بينما العفة وسط بين الاستهتار والجمود وهى أقرب إلى الجمود .

ثم جاء **الرواقيون** فتطرفوا فى الهجوم على الجانب الحسّى من الإنسان واحتقروا اللذات والمباهج ، وطالبوا بإنكار الذات وقمع النفس ورغباتها ، وأرشدوا الناس إلى ضبط الانفعالات والأهواء . والحكيم فى نظرهم هو من يتحرر من الأهواء والشهوات ، وأما الذى لا يتحرر منها فهو سفيه ضال ، ولا وسط بين الحالين .

وقال الرواقيون إنك إذا لم ترجُ شيئاً فلن يخيب لك أمل ؛ وإذا لم تتطلع إلى أن تملك شيئاً ، فلن يسرق إنسان حظك . وبينما كان معارضوهم من **الأبيقوريين** يرون أن هدف الحياة هو اللذة الشخصية ، قالوا هم إن واجب الإنسان هو أن يميت فى نفسه كل رغبة .

وهكذا نرى أن أنصار المذهب العقلى اتفقوا على أن العقل هو مصدر الإلزام الخلقى ، لكن

والبقاء للأصلح أى الأقوى . وقد حاول بعض الأخلاقيين تطبيق هذه النظرية على الأخلاق ، فقالوا إن المُثُل العليا للجماعات فى صراع متطور مستمر ، ويبقى منها الأصلح ، وما لا يلائم المجتمع منها يندثر . وقال أصحاب هذا المذهب إنه وان كانت السعادة هى الهدف والغاية ، لكنها هدف بعيد ، ومعناه القريب هو تلاؤم الفرد مع المجتمع ؛ فالسلوك الصالح هو ما يحقق الانسجام بين الإنسان والمجتمع ، والسلوك غير الصالح هو ما يؤدى إلى تعارض بين مطالب الفرد ومطالب البيئة . لذلك فإن وسيلة الأخلاق هى العدالة لضمان أن كل فرد يؤدى واجبه ولا يعتدى على حقوق الغير . وقد نادوا بنفس الجزاءات الاجتماعية والدينية والجسمية والسياسية والباطنية التى نادى بها النفعيون ، مع الاهتمام الأكثر بالجانب الاجتماعى ، وقالوا إن الفرد يرث فكرة الواجب عن أجداده ، وما المثل العليا إلا عادات اكتسبها الجنس البشرى بالتجربة ، وبمرور الزمن تختفى السلطة الخارجية ، ويصير الإلزام **كأنه** فطرى . وزعيم هذا الفكر هو هربرت سبنسر .

والنقد الذى يمكن توجيهه إلى هذا المذهب قريب مما وجهناه إلى المذهب النفعى ، فهو لا يضع مُثلا عليا يهدف إليها الإنسان ، بل هو عبارة عن دراسة تاريخية فحسب ، وما دام التطور سيحدث دون جهد ، فإن الإلزام الخلقى فى هذه الحالة يختفى .

(٣) الوضعيون :

لقد أنكرت الفلسفة الوضعية الميتافيزيقا أى ما وراء الطبيعة . وعلى هذا الأساس قال الوضعيون إن علم الأخلاق علم وضعى يدرس ما هو كائن من تقاليد وعادات وأعراف فى الجماعات البشرية ، وبذلك يكون فرعاً من علم الاجتماع أو علم الإنسان . وقد أنكر قادة هذا المذهب ومنهم أوجست كومت ، ودوركايم ، وليفى بريل ، أن علم الأخلاق علم معيارى أى يبحث فيما يجب أن يكون عليه السلوك ، بل قالوا إنه يبحث فيما عليه السلوك فعلاً . والظاهرة الخلقية عندهم ليست من صنع الفرد ، بل يتلقاها الفرد عن المجتمع ، ويخضع لها ، ومن يخرج عليها ينقم عليه المجتمع ؛ وإذا خضع الفرد بإرادته لسلطان المجتمع ، فهذا ليس دليلاً على أن الإلزام صادر من ذاته ، بل دليلاً على شعوره بأنه يستفيد من وجوده فى المجتمع أكثر من انعزاله عنه . والإلزام الخلقى هو القواعد العامة التى ارتضاها المجتمع كما تنعكس على الضمير . وشروط العمل الخلقى أن يؤديه الفرد حسب قانون مفروض ، وأن يقوم على الغيرية والتضحية ، وأن يكون صادراً عن إرادة .

وهكذا نرى أن هذا المذهب يصف الواقع ويقرره ، فلا يرتقى إلى وضع مُثل عليا أمام

الأسباب إذا ما خالفت ما هو موجود فى الذات العليا من مبادىء وقيم .

هذه الذات العليا هى مصدر الإلزام الخلقى عند الفرد ، ومحاولة الخروج عليها هى سبب الصراع النفسى .

إن الذات الواقعية تكون فى موقف لا تُحسد عليه ، لأنها تحتاج إلى الطاقة الموجودة فى الذات السفلى ، وتريد أن ترضيها ، ولكنها فى نفس الوقت تصطدم بالعالم الواقعى وقوانينه ، فإذا فكرت أن تخالفه أو تجد وسيلة خفية للتحرر من تلك القوانين ، ألهبتها الذات العليا بسياط التقريع والتأنيب ...

ولعلنا نرى أن هذا المذهب ، وإن كان يلقى ضوءاً على طبيعة النفس الإنسانية ، إلا أنه أهمل الجانب الروحى ، واعتبر كل القيم وليدة التربية . وإن كان بعض من جاءوا بعد فرويد ، عدّلوا من نظريته وقالوا إنها وليدة العقل الباطن الجماعى أو حصيلة خبرة الجنس البشرى وتجاربه (Collective Unconsciousness) وهذا ما نادى به كارل يونج .

لقد ركزت مدرسة التحليل النفسى اهتمامها كما فى الذكريات المؤلمة وبخاصة فى الطفولة ، والرغبات الجنسية ، ونادى بعضهم بالتحرر من القيود منعاً للكبت ، وربما ينسب إليهم الكثير مما نشاهده اليوم من محاولة التحلل والتحرر من قيود وتقاليد المجتمع . إلا أن كثيرين منهم وهم مقتنعون بضرورة وجود ضوابط للسلوك ، اهتموا بعلاج العقد النفسية المترسبة فى العقل الباطن وتفننوا فى وسائل علاجها ، دون استخفاف بالقواعد الخلقية .

ثالثاً : المذهب الحدسى :

يجب أن نوضح فى بدء حديثنا عن هذا المذهب ، أن المقصود « بالحدس » هنا ليس « التخمين » أو « الظن » ، ولكن « الحدس » فى علم الأخلاق تعبير اصطلح عليه فى ترجمة الكلمة الانجليزية والفرنسية «Intuition» والمقصود به « **الإدراك المباشر** » أو « **البصيرة** » . فهو ليس الإدراك عن طريق الحواس ، كما أنه ليس الإدراك عن طريق التأمل العقلى . وإنما هو الإدراك عن طريق بصيرة فطرية عند الإنسان أشبه بالإلهام ؛ هذه البصيرة الفطرية تدرك ما يسمى بالبديهيات دون ما حاجة إلى برهان عقلى . ونحن نعلم من مبادىء الرياضة أن النظريات الهندسية يمكن البرهنة عليها ، ولكن البديهية لا تحتاج إلى برهان . ومن أمثلة البديهيات عدم وجود شخص واحد بنفسه فى مكانين مختلفين فى وقت واحد ؛ كذلك من البديهيات أن الشىء المساوى لآخر ، يساوى شيئاً ثالثا يكون مساوياً للثانى .

(١) مجموعة الأهواء والمشاعر أو الدوافع الإنسانية (التى كان يطلق عليها من قبل اسم الغرائز) كالغضب والجوع والرغبة الجنسية .. الخ .

(٢) باعثان على العمل يعملان معاً وفى اتجاهات متعارضة ، هما حب الذات (الأنانية) وحب مساعدة الغير (الغيرية) .

(٣) الضمير وهو الذى يحدد اشباع الدوافع وينظمها لتحقيق الأنانية والغيرية .

والكمال الخلقى فى تقديره هو فى إخضاع الدوافع الطبيعية لمبدأى الغيرية والأنانية ، ثم إخضاع هذين المبدأين لسلطة الضمير . والضمير قوة عاقلة تميّز الإنسان عن الحيوان . ونتيجةً لوجود هذا الضمير عند الإنسان يكون «الإنسان قانوناً لنفسه» ؛ إلا أن هذا التعبير قد استخدامه من قبل جماعة السوفسطائيين الذين عارضوا المذهب العقلى ، لكن الفرق بين استخدام هذا التعبير عند السوفسطائيين واستخدامه عند أصحاب مذهب الضمير الحدسى ، فرق كبير للغاية . فقد اعتبر السوفسطائيون أن الإنسان قانوناً لنفسه على أساس الرغبات والشهوات ، بينما يقول الحدسيون إن الضمير قوة عاقلة توازن بين الأفعال ، ولأن الضمير موجود داخل الإنسان ، فإن الإنسان يصير بذلك قانوناً لنفسه .

والواقع أن مذهب الضمير الحدسى أقرب المذاهب الحدسية إلى علم النفس ، وفى نفس الوقت نجد معنى الأخلاق فى هذا المذهب أسمى من الأخلاق عند التجريبين الذين أنكروا فطرية الضمير ، وجعلوه وليد الظروف الاجتماعية . على أننا نجد بعض الفلاسفة مثل برتراند رسل ينكر أن الضمير واحد فى كل الناس بدليل أن بعض الناس يحكمون على عمل ما بأنه خيِّر ، بينما يحكم البعض الآخر على نفس العمل بأنه شر ...

والحقيقة أن كل مذهب فلسفى فى الأخلاق ينظر إلى الأمر من ناحية معينة ويهتم بها ، ربما على حساب النواحى الأخرى التى يتعرض المتحمسون – لتأكيد رأيهم – لأن يغفلوها .

لقد استعرضنا فى هذا الفصل عينات موجزة من مذاهب الفلسفة الأخلاقية[٥] ، لتعين الدارس المبتدىء على معرفة معالم الطريق فى هذا الميدان المتسع ؛ ولتعطى للقارىء العادى فكرة عما يدور فى فكر الفلاسفة فى هذا المجال ، وذلك كلُّه تمهيداً لدراسة الأخلاق من وجهة نظر مسيحية .

ونحن نعترف بقصور هذا الموجز عن تبيان كل الفكر الأخلاق فى الفلسفة ، بما فيه من ثراء وخصوبة فى النظريات والتفاصيل ، ونحيل الراغبين فى التوسع ، إلى كتب المتخصصين فى هذا الميدان وما أكثرها .

الفصل الثالث

الفلسفة الأخلاقية
و
الأخلاق المسيحية

مررنا مروراً سريعاً بنظريات الأخلاق فى الفكر الفلسفى ، ثم لا بُدَّ أن نسأل أنفسنا : أين تدخل المسيحية وسط هذه النظريات ؟ وهل من ضرورة تحتم وجود علم للأخلاق المسيحية متميزاً عن الفلسفة الأخلاقية ؟ وهل تعتبر المسيحية فلسفة أخلاقية أخرى تضاف إلى غيرها من فلسفات الأخلاق ؟

لقد تصوّر البعض أن الأخلاق المسيحية هى مجرد اقتباس بعض النظريات الملائمة لطبيعة وتعاليم المسيحية من بين النظريات الأخلاقية ، ووضع المثاليات المسيحية كهدف لها ؛ وقال البعض إن المسيحية تقترب من مذهب الضمير الحدسى ، لأنها تقول إن الله وضع فى الإنسان ضميراً يسبق الناموس ويميّز بين الخير والشر . وقد كتب بولس الرسول أن « غير اليهود من الأمم الذين بلا شريعة ، إذا عملوا بالفطرة ما تأمر به الشريعة ، كانوا شريعة لأنفسهم مع أنهم بلا شريعة ، فيُثْبتون أن ما تأمر به الشريعة مكتوب فى قلوبهم وتشهد لهم ضمائرهم وأفكارهم فهى مرةً تتهمهم ومرةً تدافع عنهم » . (رسالة رومية ٢ : ١٤ ، ١٥ الترجمة العربية الجديدة) .

إلا أن كل هؤلاء ينظرون إلى المسيحية بإعتبارها شريعة معينة من الشرائع ؛ والواقع إن

الفضيلة ؛ هذا فضلا عن أن النظرة الذاتية الطبيعية فى الإنسان ، تمسخ الفضائل أحياناً وتحولها إلى وسائل لتحقيق النفع الذاتى ، لا غايات فى حد ذاتها ؛ والمغالاة فى المسعى نحو الفضيلة دون وجود قوة روحية لتحقيق هذا المسعى ، قد تسبّب توتراً نفسياً للإنسان قد يؤدى إلى انهياره ؛ لذلك فكثيراً ما نجد أن الإنسان المجاهد لتحقيق المثل العليا يتصرف تصرفا خشناً جامداً يفتقر إلى نعمة الشعور بالاتضاع والحاجة إلى الغفران . وفى المسيحية دواء لهذا الداء إذ أن الفكر الجوهرى فى المسيحية هو أن الإنسان لا يمكن أن يصل إلى الفضيلة بجهده الذاتى ، لكنه يأتيها كثمر لعمل روح الله فيه ، وهو دائماً يشعر بمديونيته للمسيح وعمله الفدائى ، وهذا يكسبه احساساً بالتواضع ، وشفقة على الضعفاء ، وشعوراً دائماً بالحاجة إلى قوة الله .

(٣) وهناك حقيقة ثالثة ينبغى ألا تغيب عن أذهاننا ، وهى أن الفلسفة الأخلاقية تقدم لنا نظريات ، بينما نرى فى المسيحية « تجسّداً » للمبادىء الأخلاقية فى حياة السيد المسيح ، وهذه الحقيقة تلهم الإنسان وتدفعه إلى الاقتداء به .

إن الفلسفة الأخلاقية تقدَّم للناس مُثُلاً عليا ، لكنها لا تعطى للناس مثالاً حيًّا ، أما قوة المسيحية فإنها تظهر لا فى تعاليم السيد المسيح فحسب ، بل فى مثاله الذى تركه لنا ، وفى سكنى الروح القدس فى المؤمنين فى المجتمع الصغير الذى هو الكنيسة التى جعلها جسداً له ، حيث يشجع الواحد الآخر ، فيتقوى الجميع ، وينمون فى طريق تحقيق بعض هذه المثل ، فى اتجاه الرأس الذى هو المسيح .

ثانياً : سلطة الوحى وسلطة العقل :

إن الأخلاق المسيحية مؤسسة على الوحى ، الذى هو إعلان الله لذاته وطبيعته فى الكتاب المقدس . ولقد أثارت هذه الحقيقة نقد فلاسفة الأخلاق ، فقال بعضهم إن الإعلان الإلهى أمر « مفروض » على الإنسان ، ومصدره من خارج الإنسان أى من الله ، بينما فى تقديرهم هم يجب أن تنبع الأخلاق من داخل الإنسان ، من عقله أو ضميره ، فالأخلاق المفروضة على الإنسان دون موافقة منه ، لا تعتبر فى نظرهم منسوبة إلى الإنسان لأنها مفروضة عليه . وهم يقولون إننا إذا أخذنا بفكرة وجود « أخلاق مسيحية » مفروضة ، انتفت فرصة مناقشة القواعد الخلقية عقليا ، ذلك لأن الكتاب المقدس أمر مسلَّم به ولا يجوز مناقشته عقليا .

ولو أننا أخذنا بوجهة النظر التى يثيرها علماء الأخلاق ، لتصورنا فعلا أن هناك تناقضاً بين فلاسفة الأخلاق ، والأخلاقيين المسيحيين ، فهؤلاء سواء كانوا محافظين أو عصريين ،

وتناقش وتحكم على الأمور ، لا باعتبارهم آلات ميكانيكية تدار بأزرار كهربائية حسب نظام معين .

وإذا ذكرنا أن مسئولية تفسير هذا الإعلان تقع على عاتق الفرد ، فنحن لا نساوى بذلك بين جميع الناس فى القدرة على التفسير ، فمن الطبيعى أن يكون المتخصصون والمتفقهون فى علوم الكتاب المقدس أقدر من غيرهم على ذلك . وعادة يكون هؤلاء من رجال الكنيسة والعاملين المتفرغين فيها ؛ وهنا نرى أن الفكر البروتستانتى يقترب فى النتائج من فكر الكنائس التقليدية ، إذ يكون رجال الكنيسة هم الذين يمتازون بالرأى الأرجح فى تفسير الإعلانات الإلهية ... لكن الفرق فى الأصل واضح ، فإن الفكر الإنجيلى لا يقيس قيمة التفسير بالدرجة الكهنوتية لمن قام به ولا بمكانته فى الكنيسة ، ولكن بالقدرة الفعلية والعلمية .

وإن كان الناس يعتمدون عادةً على علماء اللاهوت فى تفسير الكتاب المقدس ، لكن حق هذه الدراسة مفتوح أمام كل مسيحى وليس قاصراً على جماعة بالذات . وإذا كان بعض الناس قد أساءوا حرية التفسير فى بعض الأحيان ، فإننا لا ننكر أن الكنيسة فى بعض الأحيان أيضاً قد أساءت استخدام حق تقييد التفسير كما يظهر ذلك من دراسة تاريخها .

إذا فهمنا هذه الأمور على هذا النحو أمكننا أن نرى أن « التسلط الدينى » ليس وارداً فى الوحى بالصورة التى يراها فلاسفة الأخلاق الذين ينتقدون فكرة الأخلاق المسيحية المبنية على الوحى . إن فكرة « التسلط » ربما جاءت نتيجة لوجود سلطة منظورة هى الكنيسة ، صوَّرت للناس تفسيرها للكتاب المقدس على أنه قواعد لا تقبل المناقشة ، ولو كانت ضد العقل أو الضمير عند الفرد . لكن هذا ليس الواقع فى المسيحية إذ أنها تتطلب أن يستخدم الإنسان عقله فى تصريف حياته .

وقد لاحظنا فى الآونة الأخيرة ، وبخاصة بعد انعقاد المجمع الفاتيكانى الثانى أن الكنائس التقليدية قد خففت كثيراً من جمودها التقليدى فى التفسير ، وهذه نقطة إنطلاق طيبة لصالح الكنيسة والمسيحية والمجتمع .

ثم نستطيع أن نسأل سؤالاً آخر لمحاولة حل هذا التناقض الظاهرى بين سلطة الوحى واستقلالية العقل ، فنتساءل : **هل هناك حقاً استقلالية فعلية لعقل الفرد ؟**

إن الفكرة الأساسية فى مبدأ استقلالية العقل (The Autonomy of Reason) ، هى أن الإنسان يقرر سلوكه بواسطة شرائع أو مبادىء يوافق عليها عقله دون أن تعتمد إرادته أو عقله على أية سلطة خارجية كالدولة أو الكنيسة . لكننا نتساءل : هل يتم ذلك فعلاً فى

فالإيمان أكثر مخاطرةً من العقل ...

والعقل أكثر حذراً من الإيمان ...[٨] .

الإيمان يسبق العقل أو يسير أسرع منه ، لكنه لا يناقضه ولا يتمسك بالأشياء التى يرفضها العقل تماما . وهناك أمور فوق طاقة العقل أن يقبلها أو يرفضها ، وهذه تحتاج إلى مخاطرة الإيمان ما لم يثبت ببرهان عقلى قاطع ما يدعو إلى رفضها . لكن العقل لا يستطيع أن يكمل عمله ما لم يعتمد على افتراضات أو مسلّمات يحاول بحثها . هذه الإفتراضات والمسلمات تحتاج إلى الإيمان .

لذلك فالإيمان دون العقل غير ناقد ...

والعقل دون الإيمان غير خلّاق ..

صحيح إن العقل يستطيع بدون الإيمان أن يصل إلى نتائج فى عالم الظواهر الطبيعية وسائر العلوم العادية ، لكن العقل لا يمكن أن يصل إلى نتائج فى نظريات ميتافيزيقية ، أى فى نظره إلى الكون ككل ، أو إلى الخير الأعظم ، بدون افتراضات سابقة يستمدها من الإيمان . لذلك قال القديس أوغسطينوس عبارته الشهيرة : «Credo Ut intelligam» « أؤمن حتى أستطيع أن أفهم »[٩] .

والواقع إن الإنسان وهو يحاول أن يصل إلى الله بالإيمان ، قد حاول أن يمتد بفكره إلى أبعد مما يمكن ان يصل عقله اليه ، لأنه وإن كان الله قد أعلن ذاته فى الإختبارات الدينية للبشر ، لكنه استمر إلهاً محتجباً فى سمّوه المغاير لكل شيء ، والذى يسمو فوق أى خبرة بشرية ، وهذا هو المعنى الذى تصفه الكلمة « متعال » (Transcendant) .

ومع أن الله تعالى ليس له مثيل أو شبيه ، ومن بين الألفاظ التى يُعرَّف بها الله أنه « غير مدرَك » (بفتح الراء) ، ومع ذلك فإن الإيمان يسمو إلى ما وراء هذا العالم المحدود ، ويؤكد وجود كائن عاقل هو مصدر وجود هذا العالم وأساس القيم الموجودة فيه .

وهكذا نرى أن الإيمان **يُعتبر مصدراً من مصادر المعرفة عن الحقيقة** ، وليس مجرد خيال ووهم ، ولكنه نشاط عقلىّ من أعمال البصيرة ، فهو اذاً من مصادر الفلسفة أيضاً وليس من مصادر الدين فحسب ، فكل نظرية من النظريات المختلفة عن العالم ، سواء أكانت دينية أم غير دينية ، تكاد تكون مؤسسة على افتراض أساسه الإيمان بشيء .

كما أن الإيمان له دلالة أخلاقية ، فبدونه لا يمكن أن تتجه إرادة الإنسان إلا إلى أهداف

وفى رأى برونر ، إن الإيمان المسيحى هو الجواب الوحيد للمشكلة الخلقية .

ولعل السر فى هذه النظرة السلبية التى نظر بها إميل برونر إلى الأخلاق الطبيعية ، هو تعريفه للأخلاق المسيحية أنها « طاعة مشيئة الله المتضمنة فى محبة الله كما يُعبَّر عنها فى محبة القريب » ، وبديهى أن هذا التعريف يربط الأخلاق بالجانب المسيحى رباطاً وثيقاً . وإذا تساءلنا كيف نحب القريب ؟ وما هى واجباتنا نحوه ؟ فإننا لا نستطيع أن نحددها أو نخضعها لمبدأ معين فى تقدير برونر ؛ بل إن الأخلاق المسيحية تبدو كأنها بلا مضمون ولا محتوى ، إذ أنه يرى أن واجب المؤمن أن يكتشف – بإرشاد الروح القدس – ما يفعله فى كل موقف بالذات ، وذلك نتيجة لحصوله على الميلاد الثانى . فالطبيعية الجديدة هى أساس الأخلاق المسيحية – عند برونر – وسوف نناقش هذه النظرة بتوسع عندما نتحدث عن نظريات الأخلاق المسيحية فى تاريخ الفكر المسيحى ، لكننا نكتفى الآن بالقول إنه يبدو أن إميل برونر تطرف فى نقده للأخلاق الطبيعية أو الفلسفة الأخلاقية . فنحن يجب ألا ننكر أنها تحتوى على بعض الحقيقة وتبصِّرنا فى كثير من الأمور. هذا فضلا عن أننا لا نستطيع أن نفصل العقل عن الذات الإنسانية ، ونحن نفكر فى كتاب الله أو مشيئة الله ، بل إن إميل برونر نفسه تأثر ببعض نظريات عمانوئيل كانت (Kant) فى الواجب ، وإن كان قد رفضها نظريا بسبب الناموسية التى فيها . كما أنه استخدم العقل والفلسفة الأخلاقية الطبيعية فى شرحه لمعنى العدالة فى كتابه « العدالة والنظام الاجتماعى » .

والواقع ، إن كل من يتعرض لقضايا الأخلاق يتأثر فى تفكيره بالفلسفة الأخلاقية ، وإن كان البعض ينكرون تأثرهم بها ، فالأفضل أن نقر بذلك بدلاً من أن ننكره .

إننا لا نطلب أن نهجر الفلسفة الأخلاقية ونحن ندرس الأخلاق المسيحية ، لكن هذه الفلسفة فى حاجة إلى « تجديد » . والمحبة المسيحية الناتجة عن الإيمان المسيحى أساس صالح لكل الأخلاق ، لكنها وحدها لا تقدم لنا كل محتويات الأخلاق . ليس معنى هذا أن المسيحية ناقصة ، لكننا نعنى أنه لم يُقْصَد بالمسيحية أن تكون نظرية أخلاقية تحل كل مشكلات الأخلاق بصورة شاملة ، بمعزل عن الفكر الإنسانى ، كما أنه لم يقصد بها أن تكون مجموعة قوانين لما يعمله الإنسان وما يمتنع عنه فى كل موقف .

لقد اهتم الإنجيل أساساً بعلاقة الإنسان بالله ، وعلاقة الإنسان بأخيه فى دائرة ملكوت الله . وهو بذلك يختلف عن الموسوية وبعض الديانات الأخرى ، لذلك لم يتحدث الإنجيل كثيراً عن المجتمع والسياسة إلا فى حدود ضيقة جداً . ومن يتصورون أن نصوص المسيحية تضع وحدها قواعد وقوانين لكل مشكلات المجتمع يقعون فى مشكلات كثيرة بالنسبة لعلاقة

رابعاً : مجال الأخلاق المسيحية ووظيفتها :

إن عالمنا اليوم يتصف بكثير من الفوضى الأخلاقية ، لذلك فإن السؤال الذى يتردد على ألسنة الكثيرين هو : « ماذا ينبغى أن أعمل ؟ » بدلاً من « بماذا ينبغى أن أؤمن ؟ » .

وإذا نظرنا نظرة متعجلة سطحية إلى العهد الجديد ، فإنه يبدو لنا مخّيباً للآمال من هذه الناحية ، لأنه لا يقدم لنا إجابات مباشرة ومحدّدة على هذا السؤال وبخاصة بالنسبة للمشكلات الملّحة التى تواجهنا فى عالمنا المتطور المعاصر ، مثل مشكلة الانفجار السكانى ، وأزمة المساكن وخلوّ الرجل ، وتلوث البيئة ، والعلاقات العمالية المعقدة ، والنظريات الاقتصادية المتنوعة الخ ..

والواقع إن العهد الجديد يعلن ما عمله الله لأجلنا فى صليب المسيح ، وفى موته وقيامته ، أكثر من إعلانه لنا ماذا نعمل نحن لأجل الله . والإنجيل يوجّه دعوة المسيح إلى الناس أن يتوبوا وأن يقبلوا ملكوت الله ، وأن يختبروا فى شخصه المبارك قوة الحياة المفدية .

وبولس ويوحنا فى رسائلهما يعتمدان أساسا على حقائق صليب المسيح وقيامته ، لتكون عوامل مغيِّرة لحياة الإنسان ، كما قال بولس : « لأعرفه ، وقوة قيامته ، وشركة آلامه ، متشبها بموته » (فى ٣ : ١٠) ، والإنجيل يعلمنا أنه عن طريق سكنى الروح القدس فى قلوب المؤمنين ، فإنهم ينالون ارشاداً لمعرفة الحق ، ولعمل مشيئة الله المعلنة فى يسوع المسيح .

إن المسيحية – كما تظهر من العهد الجديد – ليست ديانة ناموسية ، بمعنى أنها لا تقدّم لنا مجموعة كاملة من القواعد والتشريعات لمواجهة كل حالة من حالات السلوك الإنسانى ؛ ولكنها تتحدث عنه نعمة الله المعلنة فى يسوع المسيح ... هذه النعمة التى تثير فى الإنسان إيمانا ليتجاوب معها ويكون إيماناً عاملا بالمحبة .

لذلك فإن من يتوقعون من المسيحية أن تقدم لهم إجابة محددة لكل مسألة أخلاقية ، يجدون المسيحية لا تحقق آمالهم وتوقعاتهم ، وهم فى الحقيقة يريدون أن تعود بهم المسيحية خطوة إلى الوراء ، إلى طفولة البشرية وخضوعها للناموس . ففى عهد الناموس كان الناس أخلاقياً كأطفال يحتاجون إلى مؤدب ، تماما كحاجة الأطفال إلى أوصياء يرسمون لهم خطة السير والتصرف . وقد حدد الناموس للناس ما يعملون فى شكل أوامر ، وما يمتنعون عنه فى شكل نواه ؛ وكان هذا مناسباً للناس فى فترة ما من تاريخ البشرية ، لأن ضمائرهم لم تكن قد وصلت إلى الدرجة التى تسمح لهم بالحرية . وجاءت المسيحية خطوة أكثر تقدما من الناموسية ، وفى هذا يقول بولس الرسول :

حلال أم حرام ؟ » لكن السؤال الجوهرى هو :

« أى نوع من الناس ينبغى أن أكون ، مادمت قد اختبرت نعمة الله فى يسوع المسيح ؟ » ومع أن المسيحية لا تعطينا جواباً مباشراً لتطبيقات هذا السؤال فى بعض المسائل الاجتماعية والسياسية المعاصرة لنا ، لكنها تدفعنا إلى الحكم على هذه الأمور فى نور معرفتنا لطبيعة الله الذى افتدانا(١١) .

وثمة سؤال أخير يفرض علينا نفسه ونحن نفكر فى مجال ووظيفة الأخلاق المسيحية والسؤال هو عما إذا كانت الأخلاق المسيحية تهتم بحياة الإنسان الفردية ، أم تهتم أيضاً بنظم المجتمع المختلفة اجتماعية وسياسية واقتصادية ؟

وقد تعود الناس على التمييز بين الأخلاق الفردية الشخصية والأخلاق الاجتماعية . على أنه إذا كان تقسيم الأخلاق إلى فردية ، واجتماعية جائزاً ، فهو جائز لمجرد الدرس والشرح ، ولكن الفصل بين هذين النوعين من الأخلاق يقود إلى الخطأ فى الأحكام . ذلك أننا نعيش حياتنا دون انعزال عن المجتمع ، ونحن ندخل العالم كأفراد فى عائلات ، وحياتنا تتأثر بوحدات أكبر نصير فيها فى داخل المجتمع .

فمن يهملون الأخلاق الاجتماعية متصورين أنه يكفِى أن تكون أخلاقهم الفردية أو سلوكهم الشخصى السليم تعبيراً عن طاعتهم للمسيح ، يقعون فى وهم كبير ، لأن الحياة الفردية والاجتماعية نسيج متشابك ومترابط معاً ، حتى لقد قال إميل برونر : « لا يوجد شىء اسمه الأخلاق المسيحية الفردية . إن الله ينظر إلينا بالنسبة لعلاقتنا بالقريب وليس بالنسبة لعلاقتنا بأنفسنا . إن الإيمان ينادى الإنسان قائلاً : لا تهتم بنفسك فيما بعد فقد رتب الله لك أمورك ... ومن يحيا فى الإيمان ، وحياة التبرير ، يجب أن يتحرر من القلق الذى يراوده عن ذاته ، إننا ننكر ذواتنا لكى نوجهها نحو الله فى الخدمة .. خدمة الآخرين » .

مراجـــــع وهـــوامش

الباب الأول

مدخل إلى دراسة الاخلاق المسيحية

(١) Paul Lehmann, **Ethics in a Christian Context,** New York, Harper and Row, 1962,pp. 23, 24

(٢) قاموس محيط المحيط

(٣) المرجع السابق

(٤) Fayez Fares, **Towards an indiginous Understanding of principles** of Christian Ethics for Egyptian Christians, A doctoral Dissertation to San Francisco Seminary, 1981, pp. 4-7

(٥) مراجع هذا الفصل متعددة من كتب الفلسفة والأخلاق ، وأهمها باللغة العربية : مشكلات فلسفية ، دكتور توفيق الطويل وآخرين ١٩٥٤ تاريخ الفلسفة اليونانية – يوسف كرم . مباهج الفلسفة – ول دورانت (مترجم) وبالانجليزية

Aristotle, **The Nichomachean Ethics,** Trans. by W. D. Ross, London, Oxford University Press, 1925

Jeremy Bentham, **An introduction to the principles** of Morals and legislation, London, 1823,

J.S. Mill, **Utilitarianism,** New York, Dutton, 1914.

J. Butler, **Works,** Oxford, the Claredon Press, 1896

C.D. Broad, **Five Types of Ethical** Theory, New York, Harpers, 1930

Philip Wheelwright, **A critical Introduction to Ethics,** New York, **The Odyssey Press,** 1949

(٦) William Temple, **Nature, Man and God,** London, Macmillan, 1940, Lecture 12

(٧) George Thomas, **Christian Ethics and Moral philosophy,** New

الباب الثانى

الأساس الكتابى
للأخلاق المسيحية

الفصل الأول

مصـــادر الأخلاق المسيحية

١ - الناموس والأنبياء

لا يمكننا ونحن نفكر فى مضمون الأخلاق المسيحية أن نتجاهل أساسها الكتابى الموجود فى العهد القديم . إن مبادىء المسيحية كما تظهر فى أسفار العهد الجديد لا يمكن فهمها فهماً صحيحاً دون الرجوع إلى العهد القديم . والمبدأ الأخلاق الأساسى للعهد القديم ، هو طاعة مشيئة الله . هذا المبدأ يمّيز أخلاقيات العهد القديم تماما عن سائر الفلسفات الإنسانية . فقد اعتقد الشعب العبرانى بأن الإنسان ينبغى أن يحقق ذاته ، ويدرك معنى وجوده ، ليس بمجرد البحث عن السعادة ، والوصول إلى انجازات معينة فى حياته ، إنما بخدمته لله وتحقيق مقاصده تعالى فى حياته . ولو أننا بحثنا عن سرّ هذا الاعتقاد اليقينىّ ، نجد أنه لم ينشأ نتيجة الملاحظة العلمية والتجريبية لطبيعة الإنسان ، أو من التأمل العقلى الفلسفى ؛ إنما جاء نتيجة لمجموعة من الإعلانات الإلهية التى أعلنها الله للشعب العبرانى ، وأن بداية هذه الإعلانات كانت بسلسلة من الأحداث التاريخية فى حياة ذلك الشعب . فقد اختبر العبرانيون الله عندما أنقذهم من العبودية فى أرض مصر ، وشعروا بأنهم مديونون لله بحفظهم ورعايتهم وقيادتهم حتى وصلوا إلى الأرض التى وعدهم بأن يمتلكوها ، وهكذا أصبحوا يعيّدون ذكرى هذا الخلاص فى

لوصاياه لمجرد فرض الأحكام بصورة تحكمية استبدادية ؛ وإنما هو يطلبها تجاوبا مع محبته ورحمته ، بل أكثر من ذلك ، إنه يقدم هذه الشريعة تعبيراً عن ذاته وطبيعته ؛ فلأن الله فى ذاته صالح ، لذلك فهو يريد من شعبه أن يكون مثله ، كما قال : « إنى أنا الرب إلهكم فتتقدسون وتكونون قديسين لأنى أنا قدوس » (لاويين ١١ : ٤٤) - فالله ليس مجرد واضع للأحكام والقاضى فيها ، لكن من طبيعة الله نفسه تنبع الأحكام . فما هى صفات الله التى صدر عنها تيار الأخلاق هذا ؟ إن الكتاب المقدس يصف الله بأنه « بار » أى عادل ، ويصفه بأنه « رحيم » . « الرب بار فى كل طرقه ورحيم فى كل أعماله » (مز ١٤٥ : ١٧) .

ومن هذه الصفات الإلهية تستمد الشريعة مادتها ومضمونها . وسنرى فيما بعد كيف تتبلور هذه الصفات فى المحبة المسيحية التى تلتقى فيها صفة الرحمة مع صفة البر .

لقد تلقى الشعب العبرانى الشريعة الطقسية مع الشريعة الأدبية ، لاعتبارات مختلفة لا نريد أن نتعرض للبحث فيها ، لأنها ليست الهدف من هذه الدراسة . لكننا نجد أن الأنبياء فى القرن الثامن قبل الميلاد ، احتفظوا بالأخلاقيات الأساسية عند الشعب العبرانى ، وسموا بها إلى مستوى أعلى . فقد أعلنوا بوضوح وإصرار ما سبق أن اعلنه الله من قبل (انظر ١ صم ١٥ : ٢٢) وهو أن الله يطلب البرّ أكثر من الذبائح والطقوس . ففى بدائية فهم الناس للديانة انشغلوا بالطقوس أكثر من السلوك الأخلاقى ، وتصوّروا أنهم ماداموا يحفظون هذه الطقوس والشعائر ، ويمارسونها فى مواعيدها ، فإنهم بذلك يكونون قد قاموا بالتزامهم أمام الله . لكن الأنبياء وقفوا بثبات ضدّ هذا الاتجاه الذى يجرّد الدين من معناه الأخلاقى ، وأعلنوا أن الله لا يُسَّر بُكل تلك الممارسات إذا خلت حياة الناس من الحق والرحمة والمحبة . ونستطيع أن نقرأ نموذجاً لذلك فى سفر ميخا :

« بم أتقدم إلى الرب ، وأنحنى للإله العلى
هل أتقدم بمحرقات ، بعجول أبناء سنة
هل يُسرَّ الرب بألوف الكباش ، بربوات أنهار زيت

هل أعطى بكرى عن معصيتى
ثمرة جسدى عن خطية نفسى

قد أخبرك أيها الإنسان ما هو صالح
وماذا يطلبه منك الرب
إلا أن تصنع الحق ، وتحب الرحمة

إطار النظام القَبلَى . وحتى فى هذا الإطار كان على العبرانى أن يهتم بالغريب ذاكراً أنه هو نفسه كان غريباً فى أرض مصر . « ولا تضايق الغريب فإنكم عارفون نفس الغريب . لأنكم كنتم غرباء فى أرض مصر » (خر ٢٣ : ٩) . وكانت الأحكام تقتضى تحرير العبد فى السنة السابعة (خر ٢١ : ٢) وتوصى بالاهتمام باليتيم والأرملة والفقير (خر ٢٢ : ٢٢ - ٢٥) ؛ لكن الأنبياء أعلنوا عمومية القانون الأخلاق على جميع البشر ، وأنه إذا كان الله قد اختار الشعب العبرانى لرسالة خاصة ، فإن هذا لا يجعله يخفف من مطاليبه منهم ، بل بالحرى يجعلهم أكثر مسئولية أمامه . ويعلن الله للشعب قائلاً :

« إياكم فقط عرفت (= أحببت محبة خاصة) من جميع قبائل الأرض ، لذلك أعاقبكم على جميع ذنوبكم » (عاموس ٣ : ٢) .
والله يهتم بجميع الشعوب اهتمامه بشعب إسرائيل إذ يقول : « ألستم لى كبنى الكوشيين يا بنى إسرائيل ، يقول الرب ، ألم أصعد إسرائيل من أرض مصر ، والفلسطينيين من كفتور ، والأراميين من قير » (عاموس ٩ : ٧) .

إذاً فلا ينبغى أن يتصور شعب إسرائيل أنه بمنجاة من عقاب الله ، لكنه سينال عقابا إذا خالف القانون الأخلاق ، شأنه فى ذلك شأن باقى الشعوب .

ولقد كان سمّو الشريعة الإلهية ، واهتمامها بالحق ، والرحمة ، والإحسان ، ومطالبة جميع الشعوب بنفس المستوى الأخلاق ، راجعاً إلى اختبارهم لإلههم كإله متعال ، ذى إرادة بارة . ففى بداية رسالته النبوية رأى إشعياء السيد الرب « على كرسى عال ومرتفع » فى قداسته ، وشعر فى محضره المقدس بنجاسته وعدم استحقاقه ، فقال : « ويل لى إنى هلكت لأنى إنسان نجس الشفتين ، وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين ، لأن عينىّ قد رأتا الملك رب الجنود » (إشعياء ٦ : ٥) .

وقد أوضح الشراح واللاهوتيون أن اختبار « القدوس » (The Holy) هو اختبار روحى عميق يشعر فيه الإنسان أنه أمام الله المتعالى المتسامى غير المدرك ذى الجلال ، فيخشع أمامه ويشعر بوضاعة المخلوق أمام القدوس . « فقداسة الله بالنسبة للأنبياء لم تكن مجرد اختلافه الكامل عن كلّ من عداه ، بل هى أيضاً كمال نقاوته وبرّه »[٢] . إن إرادة هذا الإله الكامل فى برِّه ، هى أساس مطاليبه الأخلاقية السامية من الإنسان .

وبرّ الله لم تكن له صفة السكون والجمود ، أى أنه لم يكن كامنا فى إرادته تعالى بمعزل عن العالم ، وإنما أعلنه الله فى صورة أوامر أخلاقية ، وأن الناس دينوا حسب موقفهم منها ، فمن

لا أعود أخرب أفرايم
لأني الله لا انسان
القدوس فى وسطك
فلا آتى بسخط » (هوشع ١١ : ٨ و ٩)

لقد كانت رؤية الأنبياء للتاريخ متفائلة على المدى البعيد ، ذلك لأنهم آمنوا أن الله هو سيُّد التاريخ ، وأن له قصدا للإنسان ، لذلك فإنه بمراحمه الكثيرة سوف يفتقد شعبه ، وبقدرته الفائقة سيعيد هذا الشعب إلى البّر والرخاء ، لأن مقاصده الصالحة لا يمكن أن تخيب .

إن الله الذى يستخدم الأمم والإمبراطوريات العظيمة لتكون عصا تأديب لشعبه ، سوف يدين هذه الأمم والإمبراطوريات عندما تتكبّر وتتجبّر وتظن أنها بقوّتها وقدرتها نالت تلك الانتصارات . وأما شعبه ، فبعد أن يجلدهم ويؤدبهم بالحروب ، والمجاعة ، والأسر ، فإنه سيعيد « بقيّة » إلى أرضهم ، وسيقيم الله « المسيّا » من نسل داود ليحكمهم ، ويبدأ عصر جديد يتميزّ بالرخاء والعدل والسلام .

« لأنه يولد لنا ولد ونُعطى ابنا ، وتكون الرياسة على كتفه ، ويدعى اسمه عجيبا مشيراً إلهاً قديراً أبا أبديا رئيس السلام . لنمو رياسته وللسلام لا نهاية على كرسى داود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد »

(إش ٩ : ٦ و ٧)

وفى تطورات لاحقة لهذا « الرجاء المسيّوى » لا نجد ذكراً متكرراً بأن هناك ملكاً معيناً بالذات ، بل نرى أن من المتوقع أن الله نفسه سيفدى شعبه ، ويحكمهم بنفسه (٤) .

ومن بين الرؤىء الرائعة التى رآها إرميا للمستقبل فى وسط أظلم أيام تاريخ مملكة يهوذا ، أن الله سوف يؤسس « عهداً جديداً » مع إسرائيل ، ويكتب ناموسه لا على ألواح حجرية ، ولكن على قلب كل فرد ، فيقول :

« ها أيام تأتى يقول الرب ، وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهداً جديداً . ليس كالعهد الذى قطعته مع آبائهم يوم أمسكتهم بيدهم لأخرجهم من أرض مصر حين نقضوا عهدى فرفضتهم يقول الرب ، بل هذا هو العهد الذى أقطعه مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب : أجعل شريعتى فى داخلهم

للبعض مختلفا عن الفكر اللاهوتى السائد فى المسيحية ، فإن تعاليم بولس الرسول ومن - منه أمثال القديس أوغسطينوس ، ولوثر ، وكلفن ، تؤكد حاجة الإنسان إلى نعمة خاصة لتحرره من عبودية الخطية . بينما نحن نقرأ فى الأنبياء وفى المزامير ما يُفهم منه البعض قدرة الإنسان على التوبة ، ومع ما فى الإنسان من دوافع تجذبه إلى الخطية ، فإنه لا يخلو من دوافع نحو الخير .مما حدا بالبعض أن يظنوا أن الأنبياء اعتقدوا أن الإنسان إذا أراد التوبة مخلصاً فإنه يستطيع أن يغيّر مجرى حياته . لكننا نرى فى كتابات الأنبياء نغمة مختلفة عن ذلك الرأى السائد ، وهى نغمة تكاد تصل إلى درجة اليأس الأخلاقى من قدرة الإنسان – ومن ذلك ما كتب فى المزمور الحادى والخمسين وهو وليد اختبار شخصى لداود النبى الذى يقول :

« هأنذا بالإثم صوّرت
وبالخطية حبلت بى أمي ...
قلباً نقياً اخلق فىَّ يا الله
وروحا مستقيما جدد فى داخلى
لا تطرحنى من قدام وجهك
وروحك القدوس لا تنزعه منى » (مزاه : ٥ و ١٠ و ١١)

هنا نستطيع أن نرى الشعور بالحاجة إلى تدخل الله ليعطى للإنسان قلباً جديداً وروحاً مستقيماً .

ولعل الوصف المشار إليه سابقاً فى إرميا للعهد الجديد بين الله وشعبه ، وكذلك ما جاء فى رؤيا حزقيال للعظام اليابسة التىأعادها روح الله إلى الحياة (حزقيال ٣٧) ، هذه الإشارات تؤكد أن الفداء يحتاج إلى تدخل الله بكيفية خاصة ، وهنا نجد فكر العهد القديم لا يختلف عن فكر العهد الجديد .

٢ – صفات الله : البِّر والرحمة

ذكرنا أن الصفتين البارزتين اللتين يصف بهما العهد القديم الله تعالى هما البِّر والرحمة – (والبِّر) ترجمة عربية لكلمة «צדק»(صيدق) العبرية ، ونفس الكلمة تترجم أحيانا « العدل » ، لأن المقصود بالكلمة معنى العدالة عندما تتجه من الله نحو الإنسان . وهذه الكلمة تختلف عن الكلمة العبرية «משפט» (مشباط) التى تترجم فى اللغة العربية « الحق » .

يقول أغلب الدارسين للغة العهد القديم الأصلية إن صفة « البر » (= صيدق) تُنسب إلى

على أننا عندما نواصل الدراسة والمقارنة نجد أن كلمة « البر » وكلمة « الحق » تتداخلان معاً ، ويبادل كتبة العهد القديم فى إستخدامهما فى وصف الله تعالى ، ولا يصير استخدام الثانية قاصراً على وصف التطبيقات البشرية للعدل ، ويظهر هذا فى عدة آيات تستخدم فيها الكلمتان للدلالة على معنى واحد ، أو يستخدمهما الكاتب فى مقابلات شعرية بنفس المعنى ، مثلما جاء فى عاموس ٥ : ٢٤

« ليجر الحق كالمياه والبّر كنهر دائم »

ومثل الصلاة لأجل الملك فى مز ٧٢ : ١ - ٤

« اللهم أعط أحكامك (مشباط) للملك
وبرّك (صيدق) لابن الملك .
يدين شعبك بالعدل (صيدق)
ومساكينك بالحق (مشباط) .
تحمل الجبال سلاما للشعب
والآكام بالبر .
يقضى لمساكين الشعب .
يخلص بنى البائسين ويسحق الظالم »

ولعلّ السرّ فى هذا هو أن عدل الله يصير أساس الحياة فى ملكوت الله أو دائرة سلطانه ، وبذلك تستمد قوانين حكم الشعب أساسها من طبيعة الله ، ومن هذا تستخدم كلمتا البرّ والحقّ استخداما مترادفاً .

وهكذا يظهر لنا أن هذه الصفات : البر والحق والرحمة تقترب معانيها من بعضها البعض لأنها كلّها أصلاً من صفات الله التى تتجه نحو الإنسان ، والتى تجعل الإنسان ملتزما أخلاقياً بممارسة هذه الفضائل على أساس أنها من طبيعة الله الذى يريد أن يكون الناس مثله فى أخلاقه وصفاته ، ونستطيع أن نرى ذلك جليا فى القول :

« لأن الرب إلهكم هو إله الآلهة ورب الأرباب الإله العظيم الجبار المهيب الذى لا يأخذ بالوجوه ولا يقبل رشوة الصانع حق اليتيم والأرملة والمحب الغريب ليعطيه طعاماً ولباساً . فأحبوا الغريب لأنكم كنتم غرباء فى أرض مصر » . (تث ١٠ : ١٧ - ١٩) .

ينبغى أن يلتزم بها داود باعتباره داخلاً فى عهد مع الله ، لذلك كانت الخطية أولاً وأخيراً ضد الله . (٢ صم ١٢ : ١٣ ؛ مزمور ٥١ : ٤)[٧] .

ونستطيع أن نرى نفس هذا الإتجاه الموجود فى العهد القديم مستمراً فى العهد الجديد ، فليس هناك اختلاف فى أساس الأخلاق ، ونستطيع أن نتبين ذلك من بعض أقوال السيد المسيح التى توصى بنوع من السلوك الذى لا يعتبر فى نظر المقاييس البشرية عدلاً ، كقوله مثلاً « من سألك فأعطه ، ومن أراد أن يقترض منك فلا تردَّه » (مت ٥ : ٤٢) ، كما نرى ذلك فى مثل الفعلة والأجور (مت ٢٠ : ١ – ١٦) ففيه نرى صورة للعدالة فى ملكوت السموات ، فإن السيد لم يُسَّر بالفعلة الذين تذمروا لأنه أعطاهم ديناراً واحداً وقد اشتغلوا طيلة اليوم ، بينما أعطى ديناراً أيضاً لمن عملوا ساعة واحدة أو ساعات أقل . ونرجو أن نشرح هذا بالتفصيل فى الفصل الخاص بالمحبة المسيحية (agape) .

إن فكرة العدالة الفادية لم تخطر على الفكر البشرى ، لكننا نراها فى الكتاب المقدس مرتبطة بالرحمة ولا يمكن أن تنفصل عنها ، لأنها نابعة من طبيعة الله التى ترتبط فيها الرحمة مع البّر ، فهو الذى يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الأبرار والظالمين ؛ ولكى نكون مثله يجب أن نحب أعداءنا ونبارك لاعنينا ونحسن إلى مبغضينا ، لنكون كاملين كما أنه هو كامل (مت ٥ : ٤٨) وقد فسَّر البعض كلمة « كاملين » بمعنى شاملين فى المحبة ، أى ألّا ننظر إلى الناس من حيث استحقاقهم بل من أجل حاجتهم .

٣ – أخلاقيات الكمال فى تعليم السيد المسيح

مما تقدم نستطيع أن ندرك مصدر تعاليم السيد المسيح . إن مصدرها هو طبيعة الله الكاملة ، لذلك يمكن أن نطلق على الأخلاقيات فى تعليم السيد المسيح « أخلاقيات الكمال » . وإذا استعرضنا هذه التعاليم نرى أنها تتميز بعدة أمور :

(أ) لقد علَّم السيد المسيح الناس أن تتحرر دوافع سلوكهم من الرغبة فى الحصول على استحسان الناس ، وإلا فإن البشر يمكن أن يفعلوا الصلاح بدافع نوال الجزاء من الناس لا من منطلق الطاعة لأمر الله . ولعل هذا يذكرنا بحديث فى « جمهورية أفلاطون » يقول فيه أفلاطون على لسان احدى شخصياته إن الامتحان الحقيقى إذا ما كان إنسان ما فاضلًا فى الواقع وليس تظاهرا هو أن نرى ما يفعله هذا الانسان لو أمكنه أن يلبس خاتما سحرياً يخفيه عن أنظار الناس ، ويسمح له أن يرتكب الرذائل دون ملاحظة أحد أو عقاب من أحد ، فإذا استمر فاضلًا كان بالحق كذلك . [٨]

لكمال الصلاح . وبعض الصفات كالوداعة ونقاوة القلب والرحمة ، هى صفات أبناء الملكوت كما جاء فى التطويبات . لقد اهتم الرب يسوع المسيح بكل ما هو أصيل وعميق فى الشخصية الإنسانية ، لأن هذه هى الينابيع التى تفيض منها الأخلاق العملية ، فالشخصية هى التى تحدّد السلوك « كل شجرة جيدة تصنع أثماراً جيدة ، وأما الشجرة الردية فتصنع أثماراً ردية » (مت ٧ : ١٧) – ولعل هذا يوضح لنا ماذا كان موقف المسيح يكون إزاء بعض النظريات الحديثة فى الأخلاق ، كمذهب النفعيين الذين لا يهتمون بأصول الأخلاق فى داخل الشخصية ، مكتفين فقط بنتائج الأفعال .

على أننا نقع فى خطأ لو تصورنا أن الاهتمام بدوافع النفس ودواخلها هو وحده ما يطلبه المسيح بصرف النظر عن النتائج ، فإن النص الذى سبق الاقتباس منه يقول أيضاً إن « كل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تُقطَع وتلقى فى النار . فإذاً من ثمارهم تعرفونهم » (مت ٧ : ١٩ و ٢٠) – وفى خاتمة العظة على الجبل يقول السيد المسيح إن المشبَّه بمن يبنى بيته على الصخر ليس من « يسمع » فقط بل من يسمع و « يعمل » بأقواله (مت ٧ : ٢٤ – ٢٧) .

(د) وهناك جانب آخر نرى فيه الكمال فى أخلاقيات السيد المسيح وهو المعارضة الكاملة لكلّ ما هو أنانىّ . يقول العلّامة رينهولد نيبور « إن الإصرار المطلق على الكمال فى أخلاقيات المحبة عند المسيح ، يجعلها تقف موقفا حاسما بلا تهاون أو محاولات توفيقية ، ليس فقط إزاء الدوافع الطبيعية الذاتية ، بل حتى إزاء المدافعة عن النفس ضد أنانية الآخرين »(٩) .

إن السيد المسيح ينهى عن القلق من أجل الطعام واللباس ، وينهى عن الكبرياء بكل مظاهرها ، وعن مقاومة الأعداء ؛ فلابد أن تكون المحبة عامة ، وحتى الولاء للعلاقات الأسرية يجب أن يخضع لولاءٍ أسمى يكون للمسيح نفسه ولله ، وهذا يفسر أقوال المسيح التى تطالب بمحبة له أكثر من محبة الآباء والأمهات والأولاد والبنات والأزواج والزوجات . وإذا تساءلنا عن المبرر لهذه المطاليب التى تقتضى الرفض التام للذاتية ، نجد المبرر دينياً وليس اجتماعياً أو أخلاقياً ... إن المبرر هو التطابق مع مشيئة الله الكاملة وطبيعة الله الكاملة .

ويقول نيبور أيضاً :

« إن المسيح يوجهنا رأسيا لا أفقياً ، دون اعتبار لأية نتائج أو دوافع طبيعية ، فقد

المسيح الأخلاقية كان أن يبيّن للناس ماذا ينبغى أن يعملوه ليعدّوا أنفسهم للدخول فى الملكوت وفى الفترة الانتقالية بين إعلان الملكوت بواسطة المسيح وبين مجىء الملكوت الفعلى السريع والمنتظر .

ولكن هذا الرأى منقوض من أساسه لأنه يفترض جهل يسوع بالمستقبل ، والواقع أن حياة يسوع تبين لنا عكس ذلك تماما ، والآية التى قال فيها يسوع إنه حتى الابن لا يعرف الأزمنة التى جعلها الآب فى سلطانه (مر ١٣ : ٣٢) لا تعنى جهل يسوع بالأزمنة ، ولكنها تعبّر عن إخلائه لنفسه بإرادته كجزء من عملية الاتضاع التى قام بها . كما أن التيار الذى يجرى خلال الكتاب المقدس كلّه يبين لنا أن يسوع جاء ليكون الذبيحة الفدائية عن البشر ، وأن دمه معروف سابقاً قبل تأسيس العالم – كما أننا سنرى فيما بعد أن يسوع تحدث عن ملكوت الله بأنه أقبل فعلاً ، بل أنه صار داخل التلاميذ – ووعد يسوع لبطرس بأن أبواب الجحيم لن تقوى على الكنيسة يؤكد خطأ رأى شويتزر فى أن يسوع كان يعتقد بسرعة النهاية بالنسبة لعالم الشرّ ، وإلا فإنه لا يكون فى المستقبل مكان للصراع بين الكنيسة وبين أبواب الجحيم .

إذاً فهذه النظرية ثابتة الخطأ ، وإن كانت تلقى ضوءاً على الظروف التاريخية والدينية لعصر المسيح ، وعلى مفهوم ملكوت الله بالتفسير الاسخاتولوجى (الأخروى) ، لكنها لا تستقيم فى استنتاجاتها المسترسلة . ولهذا يجدر بنا أن نوضح شيئاً عن التفكير الرؤوى وعن ملكوت الله .

أ – التفكير الرؤيوى أو الأبوكاليبتى (Apocalyptic)

من يدرس العهد القديم يلاحظ أن الأنبياء اعتقدوا بسيادة الله على تاريخ الشعوب ، وكانت للأنبياء نظرة متفائلة إلى مستقبل شعب الله ، إذ سيشرق عليهم عصر جديد يعمّ فيه السلام والخير . هذا الرجاء تطور إلى ما يُعرف باسم « الرجاء المسيوى » (Messianic Hope) وبموجب هذا الرجاء اعتقد اليهود أن عصر المسيا سيتّم هنا على الأرض ويكون عصراً مجيداً يعلو فيه شعب الله فوق جميع الشعوب . وقد حدث أن الشعب اليهودى ذاق مرارة السبى زمنا طويلاً وكان يتوقع عصر المسيّا لكى ينقذه من محنته ، لكن هذا لم يحدث ، ولم يأت المسيّا . وفى الفترة الواقعة ما بين العهدين وهى نحو أربعة قرون ، وبينما كان اليهود يرزحون تحت نير السلطة الأجنبية نشأ نوع من التفكير أطلق عليه اللاهوتيون اسم التفكير الرؤوى ، وهو نوع من التطوير على « الرجاء المسيوى » يعتبر أكثر دراماتيكية وغموضاً ،

البشر مع رسالة المسيح ، وقبولهم سلطان الله على حياتهم . وصورة الملكوت عندهم أنه كائن الآن فعلاً ويتسع بقبول عدد أكبر من الناس لرسالة المسيح .

لكن هناك تفسيراً آخر للملكوت يسمى التفسير الاسخاتولوجى أى المتعلق بعقيدة الآخرة (Eschatalogical) . هذا الرأى يقول إن الملكوت عمل يتعلق بإرادة الله ، وهو عمل تاريخىّ يتدخل به الله فى تاريخ العالم ، ويظهر به مجده ويبارك أتقياءه ويدين الأشرار .

ولم تكن المناداة بالتوبة واسطة لتقريب مجىء الملكوت ، لكنها كانت استعداداً لمجىء الملكوت ، لكى يكون للناس حق الاستفادة من بركة الملكوت والهروب من غضب الله – إنما مجىء الملكوت ليس متعلقاً بتجاوب الناس وتوبتهم أو عدم توبتهم ؛ لأنه سيجىء سواءً تجاوب الناس مع الدعوة أو لم يتجاوبوا .

ويعتقد أصحاب هذا الرأى أن السيد المسيح فى كرازته ببشارة الملكوت كان متأثراً بالتفكير الرؤوى الذى ساد عند اليهود وبخاصة فى فترة ما بين العهدين . ولكن إلى أى حد كان هذا التأثر ؟

إن معنى الملكوت كما يتحدث عنه السيد المسيح لا يعنى شيئاً جامداً أو حقيقة ثابتة ، ولكنه مجال حيوى متحرك فيه يظهر سلطان الله . إن ملكوت الله لا ينفصل عن الله نفسه فهو الحاكم الدّيان والفادى فى نفس الوقت . وفى أمثال المسيح عن الملكوت نرى أنه لم يصوّره بشىء جامد ميّت بل دائماً بشىء متحرك أو بشخص يعمل عملاً ما . إنه حبّة مزروعة تنمو (مت ١٣ : ٣١) أو خميرة فعّالة فى مجالها (مت ١٣ : ٣٣) أو شخص يتحرك ويزرع (مت ١٣ : ٢٤) أو يبحث عن شىء (مت ١٣ : ٤٥) .

كما أن ملكوت الله متعلق بالله وليس بالبشر . فليس فى العهد الجديد شىء اسمه نشر الملكوت أو بناء الملكوت أو توسيع الملكوت بواسطة البشر . إن الكلمة المستخدمة فى الإنجيل عن علاقة الناس بالملكوت هى أن لهم فرصة **للدخول** إلى هذا الملكوت أو **امتلاكه** ... إن الناس يدخلون إلى شىء موجود فعلاً (مت ٥ : ٢٠ ، ٧ : ١٣ و ٢١) إنه أشبه بوليمة زواج أو عشاء مُعَّد منذ تأسيس العالم . إنه شىء موجود فعلاً ولكنه أيضاً مستمر ، وسيأتى بصورة أوضح ، أو سيراه البعض قد أتى بقوة كما ذكر فى مرقس ١٩ : ١ . إذاً فقد أخذ المستقبل طريقه إلى الحاضر ، أو دخل المستقبل إلى الحاضر ، وأصبح العريس فى وسطهم الآن فعلاً ، لذلك فإن ملكوت الله داخلهم كما قال يسوع – لقد أتى الملكوت فعلاً – وعلاماته هى التى ظهرت فى معجزات المسيح . فعندما أرسل إليه يوحنا اثنين من تلاميذه يسالانه :

المحبة . فعندما سأله الناموسيّ ليجربه قائلاً : « يا معلم أية وصيّة هى العظمى فى الناموس » قال له يسوع « تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك . هذه هى الوصية الأولى والعظمى . والثانية مثلها : تحب قريبك كنفسك . بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء » (مت ٢٢ : ٣٦ – ٤٠) (انظر أيضاً مرقس ١٢ : ٢٨ – ٣١ ؛ تث ٦ : ٥ ؛ لا ١٩ : ١٨) . إلا أنه من الصعب على المسيحى أن يميّز بين أخلاقيات المحبة ، وأخلاقيات الناموس ، فغالبية المسيحيين شأنهم فى ذلك شأن اليهود فى عصر المسيح ، يعتبرون أن الحياة الأخلاقية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقواعد ونواميس ، سواء كانت مكتوبة أو متعارف عليها ؛ بينما لو درسنا حياة السيد المسيح وروح تعاليمه لوجدنا أنها تختلف عن الأخلاقية الناموسية ؛ كما أن نظرة المسيح إلى الناموس كانت تختلف عن نظرة الكتبة ومعلمى الناموس فى عصره إلى الناموس – فلم يكن يسوع قانعاً بتحليل الناس التفصيلى للناموس ، بل كان يطلب أن يعرف الناس مشيئة الله فى نقاوتها وكمالها بنوع مباشر من البصيرة ، وقد لاحظ الناس أن تعليمه كان يختلف عن تعاليم الكتبة ... كانوا يرونه ويسمعونه يتكلم « بسلطان » (مر ١ : ٢٢) .

إن يسوع لم يهمل الناموس والأنبياء ، بل كان يقتبس منهما ، وقد قال صراحة : « لاتظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل » (مت ٥ : ١٧) . فما معنى تكميل الناموس؟

لقد أعاد يسوع تفسير الناموس وقدّم للناس معانياً يمكن أن نسميها « ثورية » فى تفسير الناموس . لقد **عمّق** معانى بعض تعاليم الناموس فجعلها تتعدّى الأفعال الظاهرة إلى النيَّات والرغبات والعواطف ؛ فجعل الشهوة والغضب يتساويان مع الزنا والقتل . كما أنه **وسّع** مجال تطبيق الناموس ، وخير مثال لذلك هو معنى كلمة « القريب » فى الوصية « تحب قريبك كنفسك » ، فقد كان من المعروف أن هذه الوصية فى سفر اللاويين تعنى علاقة اليهودى باليهودى (وإن كانت هناك فى نفس الأصحاح وصية مشابهة عن الغريب المقيم مع اليهودى.. لا ١٩ : ٣٣ و ٣٤) ، لكن يسوع جعل القريب هو كل إنسان يحتاج إلى المحبة والعون ، حتى لو كان عدوّاً ، ويظهر هذا من وصيته « أحبوا أعداءكم » ، ومن مَثَل السامرى الصالح .

وفى بعض الأحيان كان تفسير يسوع للناموس **تجديداً** له ، كتفسيره لعلاقة الزواج بأن موسى أعطى شريعة الطلاق لقساوة قلوب الناس ، وتوضيحه أن مشيئة الله الكاملة هى الاتحاد والإرتباط مدى الحياة .

وفى قوله إنه بوصية المحبة « يتعلق الناموس كله والأنبياء » جعل المسيح قانون المحبة أسمى

شويتزر ومن ساروا على دربه ؛ وإذا لم يكن المقصود منها أن تكون ناموساً آخر يحل محل ناموس موسى ، فما هى القيمة الأخلاقية لتعاليم المسيح إذاً ؟

إن الصورة التى ترد بها تعاليم المسيح الأخلاقية تخاطب الإنسان بالواجب المثالى الذى عليه أن يعمله إزاء القريب فى ضوء البّر أو العدل كما نراه فى طبيعة الله ، والذى رأينا أنه يرّ فدائى مرتبط بالمحبة والرحمة . والصورة المثالية دائماً صورة فريدة تخاطب الفرد فى واجبه نحو الفرد ، ولا تضع فى اعتبارها تشابك مصالح الأفراد المختلفين ، لأن ذلك يهبط بها إلى الواقعية . ونحن نحيا فى عالم واقعىّ لابدَّ أن يكون فيه أكثر من قريب ، وعندئذ تتضارب مصالح الأفراد ، وعلينا أن نتخذ قراراً على أساس التفضيل لا على أساس المثالية . لذلك فإن تعاليم السيد المسيح هى وازع اسخاتولوجى يوضح للناس مشيئة الله النقية الكاملة لكى يسترشد بها الإنسان فى اتخاذ قراراته فى الحياة ، لا على شكل أوامر ونواه ناموسية ، ولكن على أساس العلاقة بين المؤمن وربّه الذى تكشف هذه التعاليم طبيعته الكاملة . وقد لا يفهم البعض المقصود بالتعبير « وازع اسخاتولوجى » ، ومعناه أن الله الذى افتدى الإنسان وأعطاه الحياة الأبدية بمعرفته ويريده أن ينمو إلى النهاية فى القداسة باعتباره شريكا للطبيعة الإلهية ، يقدم للمؤمن بهذه التعاليم تحدّيات هائلة ويدفعه إلى السعى نحوها ، لكى يقترب من الصورة التى يريده أن يكون عليها .

لكننا فى نفس الوقت لا نستطيع أن نعتبر تعاليم المسيح صورة خيالية لا نستطيع تطبيقها ، ومن ثَمَّ تصير تحفة جميلة نتباهى ونستمتع بها دون أن يكون لها أثر فى حياتنا . إن وجود هذه التعاليم يمثل ضرورة للإنسان ، وإذا كناّ نتجاهلها أو نحوّرها لنهبط بمستواها الأخلاقى ، فإننا نرتكب خطأً كبيراً . إن مثالية هذه التعاليم لا تدفعنا إلى التواكل والتهاون والتماس المعاذير لأنفسنا فى حياتنا الأخلاقية ، فإن معنى ذلك أننا نُغيِّر هذه التعاليم ، بينما المقصود هو أن هذه التعاليم تغّيرنا نحن ، وتكون دائماً قوةً ناقدة لنا تدين تصرفاتنا التى تهبط عن مستوى مطاليبها ، لنشعر دائماً بضعفنا ونقصنا ونقص مجتمعنا .

إن العيب فى الناموس – أى ناموس – هو أنه يركزّ على مظاهر السلوك ، وبالتالى يجعل البعض يظنون أنهم يستطيعون أن يتمّموه ، فيقولون مع بولس « من جهة البّر الذى فى الناموس بلا لوم » (فى ٣ : ٦) دون أن يدركوا المضمون الحقيقى لقول بولس . لكن الأخلاق الواردة فى تعاليم المسيح تهتم بالنوايا والدوافع الداخلية ، ولا يستطيع إنسان مخلص – ولو إلى حد قليل من الاخلاص أن يقول عن نفسه أمامها إنه بلا لوم .

وكيف تخفى ما تريد وكيف تحب ما تكره ، وكيف تكره ما تحب

وأذكر بهذه المناسبة النكتة التى رويت عن تشرشل
حينما رأى شاهد مقبرة مكتوبا عليه
« هنا يرقد الرجل الصادق والسياسى العظيم »
فقال ضاحكاً :
هذه أول مرة أرى فيها رجلين يدفنان فى تابوت واحد .

وفى عالم الدين ودنيا العبادات يطل الكذب
الخفى من وراء الطقوس والمراسيم

شهر الصيام الذى هو امتناع عن الأكل يتحول إلى شهر أكل فتظهر المشهيات والحلويات والمخللات والمتبلات ، من كنافة إلى مشمشية إلى قطايف إلى مكسرات ، ويرتفع استهلاك اللحم

وبين كل مائة مصلّ أكثر من تسعين يقفون بين يدى الله وهم شاردون مشغولون بمصالحهم الدنيوية يعبدون الله وهم فى الحقيقة يعبدون مصالحهم وأغراضهم ويركعون الركعة لتقضى لهم هذه المصالح والأغراض

وقد عاش بابوات القرون الوسطى فى ترف الملوك والسلاطين ورفلوا فى الذهب والحرير والسلطة والنفوذ وامتلكوا الاقطاعيات والقصور باسم الدين وباسم الإنجيل الذى يقول إن الغنى لن يدخل ملكوت الله إلا إذا دخل الجمل من ثقب إبرة .. بل إنهم تصوروا أنهم امتلكوا الجنة فباعوها صكوكا لطالبى الغفران .

أين الصدق إذاً ؟

ومتى تأتى هذه اللحظة الشحيحة التى نتحرى فيها الحق والحق وحده ؟

إنها تأتى على ندرة لهذا كانت الخلوة مع النفس شيئاً ضرورياً ومقدساً بالنسبة لإنسان العصر الضائع فى متاهات الكذب والتزييف .
تلك المكالمة الإنفرادية والافشاء والاعتراف والطرح الصريح من الأعماق إلى سطح الوعى فى محاولة مخلصة للفهم ، وهى « لحظة من أثمن اللحظات .

وقد تأتى تلك اللحظة فى العمر مرة فتكون قيمتها بالعمر كله »[١٣] .

إننا فى العهد الجديد لا نقف أمام تعاليم ووصايا ، لكننا نقف أمام شخصية المسيح الذى أعلن لنا فى حياته وتعليمه وموته وقيامته طبيعة الله وحبّه ، لكى نسعى بالإيمان به والإتكال عليه وعمل روحه ، أن نكون أبناء أبينا الذى فى السموات .

وهذه هى القيمة الأخلاقية الكبرى لحياة وتعاليم السيد المسيح .

الفصل الثانى

المحبة فى تعليم المسيح

تمهيـد :

المحبة هى قمة « الفضائل المسيحية » الثلاث : الإيمان ، والرجاء ، والمحبة ؛ وهى أعظم قوة فى هذا العالم وأكثرها غموضاً ؛ وهى تتحدى التعريف لأن معناها الحقيقى لا يُعرَف إلا فى الاختبار الدينى . ويقول البروفيسور بول تيلليك إن تعريف المحبة مستحيل لأنه لا يوجد مبدأ أعظم منها يمكن أن نشرحها به ؛ فهى الشىء الطيب المطلق فى هذا العالم ، ولا يمكن للإنسان أن يحيا بدون المحبة لأنها القوة الدافعة العظمى للحياة .

وكل إنسان يعرف نوعاً من أنواع المحبة على الأقل . فهناك محبة العائلة ، وتستخدم اللغة اليونانية لها تعبيراً خاصاً (Storge) . فالأم تحب أولادها بالطبيعة ، وهكذا سائر العلاقات العائلية . وهناك محبة الصداقة أو ما اصطلح على تسميته « المودة الأخوية » وهى باليونانية « فيليو » (Philio) حيث يعطى الإنسان المحبة لصديقه ويتقبّل منه المحبة – وهناك محبة الجنس الآخر وهى باليونانية « ايروس » (Eros) وهى التى تعرف بالعشق أو الغرام أو المحبة الجنسية(١٤) وهى التى يحاول فيها كل طرف أن يمتلك الطرف الآخر ، وفى نفس الوقت يسلّم

نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك » (مرقس ١٢ : ٣١) وهذا اقتباس من (التثنية ٦ : ٤ و ٥) « اسمع يا إسرائيل : الرب الهنا ربٌّ واحد . فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك » . ولقد وصف الله بأنه محبة (١ يو ٤ : ٨) ، وواجبنا أن نحبه من كل كياننا (مت ٢٢ : ٣٧ - ٤٠) - هذا الأمر بمحبة الله يواجهنا بمشكلتين :

الأولى : إن المحبة تتطلب عواطف ومشاعر تلقائية ولا يمكن الأمر بها(١٥) .

والثانية : إن المحبة الطبيعية تتجه نحو الأشخاص والأشياء المحسوسة ، فنحن نحب من نراه ، فكيف نؤمر بأن نحب الله الذى لا نراه ؟ ولكى نناقش هذين الاعتراضين يجب أن نفكر تفكيراً تحليلياً فى معنى المحبة وكنهها . فنلاحظ أولاً أن المحبة لله ، نعمة وهبة كالإيمان والرجاء ، تعطى للإنسان عند التجديد . « لأن محبة الله قد انسكبت فى قلوبنا بالروح القدس » (رو ٥ : ٥) - إن الله هو الذى يعطينا أن نتعلم محبته ، والأمر بمحبة الله إنما هو حافز دائم لنا لنمارس هذه الفضيلة لتكون جزءاً من شخصيتنا . ولنلاحظ أن حرارة المشاعر أو التهاب المحبة ليست من الأمور المتوقعة فينا ونحن نمارس هذه المحبة . ربما يكرمنا الله بحرارة حبّ حقيقية له ، لكننا يجب أن نذكر دائماً أننا بسبب عدم رؤيتنا لله بالحواس ، فإن محبتنا له ستبقى عملاً من أعمال الإرادة لا العاطفة ، ويكون معناها أننا نضع الله أولاً فى كل قراراتنا . الوصية تأمرنا بأن نحب الله من كل القلب والفكر والقدرة أى بحماس ؛ والحماس هو عكس الفتور أو السّبات ، وهو أمر متعلق بالإرادة . وحتى التعبير « من كل القلب » لا يعنى الجانب الوجدانى كما هو شائع ، فإن استخدام العهد القديم لكلمة « القلب » يشير دائماً إلى كيان الإنسان الداخلى كله فكراً ووجدانا وإرادة . وعندما تكون الحياة المسيحية هى حياة المحبة العاملة فعلاً ، لن يكون فيها مكان للفتور من ناحية ، وللتظاهر الشكلى بالحنوّ ورقة الاحساس من الناحية الأخرى ، إذ أن كل الشخصية ستنشغل بأعمال المحبة أكثر من التعبير الوجدانى عنها - كذلك عندما تتصف الإرادة بحماس المحبة ، تمتلىء الحياة بالسرور والأشواق والتكريس . أما السرور فبسبب جمال الله الذى ندركه من فيض نعمته وروعة محبته ؛ أما الأشواق فلأن غنى الله الذى لا يستقصى يثير فى قلب المؤمن روح الاكتشاف والمخاطرة ، فيشتاق إلى مزيد من الإختبارات الروحية مع الله ؛ أما التكريس فلأن صلاح الله وعظمته اللتين تجلتا فى فدائه تعظّمان من قدر الله فى حياتنا بحيث لا يمكن إلا أن نعبده ونضحى بكل شىء من أجله . من أين يأتى حماس محبتنا لله ؟ إنه يأتى عندما نختبر غفران الله العجيب لنا ، فنكون كالمرأة التى سكبت الطيب على قدمى المسيح ؛ وكبولس الرسول الذى عاش وهو يحس دائماً بأنه مغمور بمحبة الله ، لذلك كان يريد أن يتفانى فى الخدمة وأن يُنفِق ويُنْفَق من أجل الإنجيل .

هو معرفة النفس على حقيقتها ، ويعقبه الاعتراف والتسليم لله . وليس معنى التسليم إذعانا لما لا مفرّ منه ، ولكنه قبول مشيئة الله باعتبارها صالحة ومرضية وكاملة ، وقبول هذه المشيئة بسرور .

(٢) والطريق الثانى هو إخضاع الإرادة لله . لقد أعطانا الله إرادة حرّة ، ولنا الحرية إما أن نخضعها لله أو نمنعها عنه - إن الله لا يرغمنا ، ولكنه بمحبته يخلق فى نفس الإنسان جوعاً ، يمكن أن نسميه شوقاً إلى تقديم المحبة لله ، فيشتاق الإنسان أن يعطى نفسه لله ولخدمته عن طريق خدمة الآخرين ، وتمجيده ، ولإعلاء اسمه فى كل مكان دون دافع أنانىّ .

وهناك بُعْدٌ آخر لمحبة الله ، هو أن نحبّ الله لذاته ، وهذا هو أسمى أنواع المحبة التى عرفها المتنسكون .

ب - أثر محبة الله فى حياتنا :

عندما يسكن الله فى قلوبنا ، وعندما نحب الله فعلاً ، سيغيّر الله كل أنواع المحبة الأخرى التى فى حياتنا وينقيها لتكون كلها لمجده . هذه التنقية ليست أمراً سهلاً ، ففيها انتزاع لكثير من العواطف والأشياء المحببة إلى نفوسنا إذا كانت تتعارض مع محبتنا لله . إن محبتنا لله لا تجعلنا خشنين ، ولا تترك الإنسان خالياً من العواطف ، لكنها توّجه أولويات الإنسان ، وتعينه على النضج ، لذلك فهى لا تخلو من الألم والمعاناة ، واجتياز اختبار الصليب ، لتتجه عواطفنا وعقولنا وإرادتنا نحو الله . وقد قال السيد المسيح : « إن كان أحد يأتى الىّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً ، فلا يقدر أن يكون لى تلميذاً - ومن لا يحمل صليبه ويأتى ورائى فلا يقدر أن يكون لى تلميذاً » (لوقا ١٤ : ٢٦ و ٢٧) ، ولا يقصد السيد بذلك كراهة الأهل والنفس ، ولكن أن يكون الله الأول فى حياة الإنسان فعلاً ، فلا نضحى بمبادئه وقيمه وطاعته بسبب علاقاتنا العادية .

إن المحبة الكاملة لله ليست أمراً سهلاً بالنسبة للإنسان الذى تشدّه العواطف والرغبات ؛ ولكنها الهدف الذى يجب أن يسعى اليه دائماً .

وكلما تقدّم الإنسان فى محبته لله وإدراك جماله وجلاله ، نما فى هذا الاتجاه ، وشعر ببعده عن محبة الله الكاملة ؛ لذلك فالأتقياء بالحق هم أكثر الناس شعوراً بالخطية ، فعلاً لا كلاما أو تظاهراً .

الخدمة الفنية التى نتلقاها منه ؛ وبذلك فنحن لا نلتقى إلا بجانب سطحىّ هو الذى نحتاج إليه ويربطه بنا . وعلى العكس من هذا الاتجاه لو أننا تعاملنا مع إنسان ما كشخص متكامل فإن اهتمامنا به لا يكون من جانب واحد بل يكون بالنسبة لنا شخصا نظيرنا ، له اهتمامات وظروف وأشواق ومتاعب وحياة مستقلة عنا – ونحن نستطيع أن نجرّب ذلك مع أى شخص نتعامل معه ، إذا قضينا وقتا نتحدث معه عن ظروفه الشخصية وعائلته بعيداً عن المجال الذى يربطنا به ، ونحتاج اليه فيه . مثلا مع النجاّر الذى يصلح لنا منضدة أو كرسّياً فى البيت ؛ أو مع المدرس الذى يعطى لأولادنا درساً ... إذا ما دخلنا إلى أعماق حياته « بلمسة شخصية » سيْنكشف لنا عالم جديد تماما ، وسوف نكتشف أن هذا الإنسان ليس مجرد مخلوق يؤدى وظيفة معينة ، بل نراه شخصاً بكل معانى الإنسان المستقّل عنا ، الذى يمتلك الكثير من العواطف والاحساسات ، وربما يعانى من المتاعب والمشكلات التى قد نشعر بواجبنا أن نساعده فيها ، أو نعطف عليه بسببها ، أو نلتمس له عذراً إذا لم يقدّم لنا الخدمة بالمستوى الذى نريده . ما الذى كشف لنا هذا الأمر ، أو ما الذى أحدث هذا التغيير فى إدراكنا لشخصيته وعلاقتنا به ؟ السبب هو أننا استطعنا أن نرى الشخص من داخله ، وليس من ظاهره ...

وقد قرأت قصة لعلها توضح لنا هذه الحقيقة . فقد كان أحد كبار رجال الأعمال مسافراً فى قطار فاخر ، وذهب إلى عربة الطعام ليتناول العشاء ؛ لكنه استاء من أسلوب الخدمة ، فقد كان خادم المائدة مرتبكا ومتلعثما لدرجة أنه نسى إحضار بعض أدوات المائدة الضرورية ، وتأخر فى إحضار بعض عناصر الطعام ، فاستدعاه رجل الأعمال ووبخه وقال له إن الخدمة سيئة على خلاف المعتاد فى مثل هذا القطار . فأخذ الخادم يعتذر له وقال له : « اعذرنى يا سيدى ، فلم يكن مقرراً أن أسافر فى هذا القطار ، وكنت مجرد احتياطى ، وكنت أرجو أن يحضر العامل الأصلى ، لكى أعود إلى المستشفى لأمكث هذا الوقت مع ابنتى الوحيدة التى ستجرى لها عملية جراحية خطيرة الليلة ؛ ولكن العامل الأصلى لم يحضر فكنت مضطراً أن أستقل القطار بدلاً منه ، وأترك ابنتى فى المستشفى ، وفكرى مشغول بها جداً . اعذرنى يا سيّدى إذا كنت ارتبكت أو قصّرت ..

وهنا تغيّرت نظرة رجل الأعمال إلى ذلك الخادم ، وأشفق عليه ، واعتذر له عن كلمات التوبيخ القاسية التى سبق أن وجهها إليه ، وتمنى لابنته الشفاء . هذا هو ما يمكن أن يحدث لو استطعنا أن نرى الشخص الآخر من داخله وليس من ظاهره .

إيجابية ، مثل الغنى فى مثل « الغنى ولعازر » ، والغنى الغبى . ويؤكد السيد المسيح أن خطية عدم الفعل لا تقل أبداً عن خطية الفعل . وفى مَثَل السامرى الصالح نجد خطية الكاهن واللاوى فى أن كلا منهما رأى الجريح واجتاز إلى جانب الطريق الآخر « جاز مقابله » . وفى وصف الدينونة الأخيرة نجد أن أولئك الذين طرحوا فى النار الأبدية هم أولئك الذين كانت خطيتهم هى عدم الفعل ، فهم لم يطعموا الجياع ، ولم يسقوا العطاش ولم يزوروا المرضى والمحبوسين (مت ٢٥) .

وليست الأنانية وحدها هى سرّ عدم معاملتنا للآخرين كأشخاص لكن ثمة سببا آخر هو **الكبرياء الروحية والأدبية** . فلقد صدم يسوع جماعة الفريسيين بمعاملته الرقيقة للمرأة الخاطئة ، وقد كانوا ينتقدونه بأنه كان يأكل مع العشارين والخطاة ، وبدلاً من أن يترفّع عليهم بإعتباره رجلاً باراً ومعلماً صالحاً ، نجده يكسر الحواجز بين « الأبرار » الذين يحفظون الناموس ، و« الخطاة » الذين يكسرون الناموس . وقد كانت هناك شرائع للطهارة الطقسية ، وكان الكتبة والفريسيون يلاحظونها بعناية لكى لا يتنجسوا ، لكن يسوع علم بأنهم يعملون ذلك بدافع الكبرياء الروحية ، وقال عنهم إن « كل أعمالهم يعملونها لكى تنظرهم الناس ، فيعرّضون عصائبهم ، ويعظمون أهداب ثيابهم ، ويحبون المتكأ الأول فى الولائم والمجالس الأولى فى المجامع ، والتحيات فى الأسواق وأن يدعوهم الناس سيّدى سيّدى » (مت ٢٣ : ٥ - ٧) .

إن الدراسات التاريخية تبين لنا أن حياة الفريسيين كان لها جانب لامع وليست بالصورة التى نتصورها نحن الآن بسبب نقد المسيح لهم . لقد كانوا جماعة من المدققين الغيورين الأتقياء الذين يحفظون الناموس . ووجهة نظر الإنجيل أن أولئك الناس كانوا فعلاً غيورين ومخلصين فى رغبتهم أن يطيعوا الناموس سواءً المكتوب أو المتواتر فى التقاليد ، ويمكن أن نقارنهم ونشبههم بكثيرين من المدققين والمتزمتين فى كل عصر . لكن هذه الغيرة أوجدت فيهم نوعاً من البّر الذاتى والرضا بحالتهم ، بصورة فصلتهم عن الشركة مع غيرهم ممن لم يكونوا يحفظون كل شرائع الناموس الأدبية والطقسية مثلهم . ونحن لا ينبغى أن نفترض أن الكتبة والفريسيين كانوا واقعين فى خطية الرياء الواعى ، لأن معظم الرياء غير واع ، أى أن معظم المرائين لا يدركون أنهم كذلك ، بل غالباً ما يكونون مخدوعين فى أنفسهم ويظنون بإخلاص أنهم أتقياء وصالحون . وفى الغالب لم يكن الفريسيون يدركون أنهم بإهتمامهم البالغ بالعشور وقواعد الغسلات والأمور الطقسية والحرفية ، كانوا يتركون أثقل الناموس : الحق والرحمة والإيمان (مت : ٢٣ : ٢٣) ذلك لأن الاتجاه الناموسى فى الأخلاق ، عادةً يهتم بالتفاصيل الصغيرة التى تضمها قواعد وقوانين ، لدرجة أن هذا الاهتمام يطغى على الأمور الجوهرية

إنَّ عجزنا عن الوصول إلى هذه الشركة الكاملة لا يثبّط من همتنا ، ولا يجعلنا نستكين للضعف الإنسانى ونقبل ونرضى بالمستوى الأقّل ؛ إنما ينبغى علينا – كما ذكرنا من قبل – أن لا نهمل هذا الطريق ، بل نجاهد بمعونة المسيح أن نسير فيه ؛ وفى نفس الوقت نشعر بحاجتنا إلى التوبة المستمرة إذا قصّرنا أو ضعفنا فى أثناء رحلتنا معه فى طريق الصليب ... وهكذا نعيش دائماً متطلعين إليه ، راضين بكل ما يتطلبه طريق الطاعة والتلمذة له ، فلا نطلب الراحة بالحلول التوفيقية ، لأنه ويل للمستريحين فى الكنيسة !!

ب – أوصافها :

نستطيع من خلال أحاديث السيد المسيح وحياته أن نلاحظ أوصاف المحبة المسيحية (أغابى agape) وكيف أنها تختلف عن المحبة العائلية (Storge) والمحبة الأخوية أو الصداقة (Philio) ومحبة الجنس الآخر (Eros) . إنها شيء آخر يختلف عن كل ما نطلق عليه فى تعاملاتنا العادية لفظ « حب » أو « محبة » – وقد رأينا معناها وأعماقها . إنها شركة عميقة مع الشخص الآخر . وهذه أوصافها :

(١) المحبة المسيحية **شاملة فى مداها** . ففى مثل السامرى الصالح رأينا أن القريب هو أى إنسان يصادفنا مهما كانت جنسيته ولونه وعقيدته . إن هذا الوصف ثورى بالفعل ، ورغم مرور القرون على تقدّم المدنّية والفكر الإنسانى فإن الناس لم يصلوا بالكامل إلى أعماق هذا المعنى وثوريته ، والدليل على ذلك هو ما نراه فى عصرنا الحاضر من تعصّب وتحيّز وتفرقة عند تابعى ديانة المسيح ، كما عند غيرهم . وعندما قال المسيح : « أحبوا أعداءكم » لم يكن يقصد معنىً سلبياً أى عدم كراهيتهم ، بل قصد أن نقوم بعمل إيجابى لنبدأ علاقة معهم ونسالمهم ونغفر لهم ونريد لهم الخير . إن المحبة المسيحية لا تكتفى بالاتجاه السلبّى « لا تقاوموا الشرّ » بل تتعدى ذلك إلى العمل الإيجابى كالصلاة والمباركة والإحسان « اغلب الشرّ بالخير » .

(٢) والمحبة المسيحية **لا تؤسس على انتظار ردّ المحبة** أى لا تنتظر ردّ المحبة كشرط لتقديمها . فقد قال السيد المسيح :

« وإن أحببتم الذين يحبّونكم فأى فضل لكم ، فإن الخطاة أيضاً يحبّون الذين يحبونهم . وإذا أحسنتم إلى الذين يحسنون إليكم فأى فضل لكم . فإن الخطاة أيضاً يفعلون هكذا . وإن أقرضتم الذين ترجون أن تستردوا منهم فأى فضل

المحبة المعروفة والمألوفة . فإنه قال : « لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة » ، وفى نفس الوقت ربط نفسه بالناس المعروفين أنهم خطاة ، وبذلك هاجم الفكر اليهودى الشائع الذى كان مضمونه أنه يوجد فاصل واضح فى نظر الله بين الأبرار والأشرار . لقد طرح يسوع جانبا النظرية التى كانت تقول بأن نظرة الله إلى الناس تحكمها فكرة **العدل الجزائى** والعقابى على أساس علاقة الناس بالناموس . وتعليم يسوع عن المحبّة غيرَّ المفاهيم إذ أظهر أن محبة الله سخيّة وشاملة للأبرار والأشرار ، وبذلك فتح الطريق إلى إدراك مفهوم جديد **للعدل الفدائى** ؛ ومن أفضل الأمثلة التى تشرح هذه الحقيقة مَثَل الفعلة والأجور (مت ٢٠ : ١ - ١٦) الذى شبَّه به المسيح ملكوت السموات . فى ذلك المَثَل نرى صاحب العمل ، أو (ربّ البيت) يستأجر فعلة لكرمه ويتفق معهم على دينار كأجرة يومية ؛ ونراه يخرج بعد ساعات من بدء النهار ، ثم فى منتصف النهار ، ثم قبل نهاية اليوم بساعة ، وفى كل مرَّة يرسل فعلة ليعملوا فى الكرم . وعندما جاء فى ختام اليوم (الساعة الثانية عشرة حسب التوقيت اليهودى) ليدفع الأجرة ، دفع ديناراً للذين اشتغلوا متأخرين ؛ وتوّقع الذين عملوا من أول النهار أنه سيعطيهم أكثر من دينار ، لكنهم فوجئوا بأنه أعطاهم أيضاً كل واحد ديناراً واحداً . فتذمروا قائلين : « هؤلاء الآخِرون عملوا ساعة واحدة ، وقد ساويتهم بنا نحن الذين احتملنا ثقل النهار والحر » . وكان هذا تذمراً طبيعياً إذا نظرنا إلى العدل من ناحيته النسبية والتوزيعية . لكن ربَّ البيت قال لواحد منهم : « يا صاحب ما ظلمتك . أما اتفقت معى على دينار . فخذ الذى لك واذهب ، فإنى أريد أن أعطى هذا الأخير مثلك . أوَما يحلّ لى أن أفعل ما أريد بما لى ، أم عينك شريرة لأنى أنا صالح » (مت ٢٠ : ١٣ - ١٥) .

يقول أحد اللاهوتين تعليقا على هذا المَثَل إننا لا نستطيع أن « نبرىء » رب البيت فى هذا المثل من تهمة الظلم وعدم المساواة إذا كنا نقيس العدالة بالمقاييس البشرية[١٨] ، لأنه مع أن صاحب العمل اتفق مع العمال على أجر دينار واحد ، لكن كونه دفع أجراً كبيراً نسبياً لمن اشتغلوا متأخرين ، يعتبر أمراً غير طبيعى مع أنه لا يخالف أى قانون أو وعد ، لكن العدالة البشرية تتوقع أجراً أكبر للعمل الأكثر .

لذلك ينبغى ألّا نعتبر أنفسنا مجرد متلقين لمحبة الله سلبياً ، بل ننظر إلى نفوسنا كمخلوقات نشطة مسئولة يدعونا الله أن ننجز قصد محبته فى حياتنا وفى حياة الآخرين .

وهكذا نرى أن الله يحبنا ليس لأنه **يحتاج** إلى شىء يمكن أن نقدمه له رداً على هذه المحبة ، وَلكنه يحبنا بهدف أن هذه المحبة تثير فينا الرغبة فى ردّ المحبة والتجاوب معها ، فندخل فى **شركة** معه إذ نقدّم له ذواتنا .

إن محبة الله تتجه إلى أسفل ، إلينا ، لكنها تهدف أن تثير فينا حركة محبة إلى أعلى ، نحو الله .

وعلى نفس القياس ، فنحن يجب أن نحب الآخرين دون أن يكونوا مستحقين ، ودون انتظار ردّ المحبة ، ولكننا نحاول عن طريق محبتنا السخيّة المخلصة أن نوقظ فى الآخرين القدرة على أن يقدموا المحبة كما يتلقون المحبة . وهكذا نعاون الآخرين أن يتبينوا ويكتشفوا قيمتهم التى يستطيعون الحصول عليها بالتوبة والإيمان بالمسيح . فكم من أناس لديهم قدرات وطاقات هائلة على الحبّ والعطاء ، لكن هذه القدرات تظل خامدة ساكنة لأنها لا تجد من يطلقها من ركودها ... وعندما تصادف هذه القدرات لمسات حبٍّ حقيقية مخلصة مضحية بلا أهداف أنانية ، تتفجر هذه الطاقات فتعطى حبّاً وافراً للآخرين ؛ وهكذا يدخل الإنسان فى شركة متبادلة من العطاء والأخذ مع الآخرين ، فيمتلىء العالم من المحبة ، أو يمتلىء العالم من الله ، لأن الله محبة . هذا هو هدف المحبة المسيحية .

٣ – محبة النفس

نأتى الآن إلى موضوع يعتبر مثار الجدل . إن الوصية التى اقتبسها الرب يسوع من العهد القديم تقول : « تحبّ قريبك كنفسك » فهل يتضمن هذا القول وصية ثالثة هى « تحبّ نفسك » ؟ إن القانون الذهبى الذى ذكره المسيح : « فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم » (مت ٧ : ١٢) يبدو أنه يؤيد هذا الرأى لأنه يفترض أن يكون الإنسان راغباً فى الخير لنفسه ، لذلك فواجبه أن يفعل الخير للغير . لكننا فى نفس الوقت لا نجد نصوصاً فى العهد الجديد توصى بمحبة النفس ، بل ربما كانت أحاديث السيد المسيح تعارض محبة النفس أكثر مما تؤيدها .

ونحن نقرأ لبعض الآباء فى تاريخ العصور الأولى للكنيسة وفى العصور الوسطى ، نجد أنهم

الإنسان إلى « احترام ذاته » باعتباره هدفا لمحبة الله ورحمته مفديا من عبودية الخطية والموت ، وفى عداد أبناء الله[٢٣] .

هذا هو السبب الذى جعل اتضاع المسيحيين لم يقف عائقاً دون وقوفهم بثبات من أجل عقيدتهم وأسلوب حياتهم رغم الانتقادات التى وُجهت إليهم ، بل إن اتضاعهم لم يمنعهم من أن يفتنوا المسكونة ليجعلوها تسير فى تناسق مع المُثل العليا التى كانت لديهم . إلّا أن تقبل الذات واحترامها لا ينبغى أن يختلط مع « الاعتداد بالذات » لأن هذا الاتجاه الأخير أساسه الاعجاب بالذات والفخر بالنفس بدلاً من الإيمان بالله .

فى ضوء هذا المفهوم ماذا يكون موقفنا من الاهتمام بالذات سواء أكان بحاجات الذات الجسدية أو الروحية ؟ إن الصلاة الربانية تتضمن طلبات تتعلق بخبزنا اليومى ، وغفران خطايانا ، وانقاذنا من التجربة ؛ هذا فضلاً عن أن بعض أقوال المسيح تشير إلى النفس والجسد وحاجاتهما كقوله : « اطلبوا أولاً ملكوت الله وبّره ، وهذه كلها (حاجات الجسد) تزاد لكم ، وكسؤاله : « ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كلّه وخسر نفسه » - هذه الأقوال تفترض أن هناك واجباً للاهتمام بالنفس من ناحية خيرها الأسمى .

فإذا كانت محبة الذات هى أساس الشرّ الذى يجب أن نتغلب عليه ، فكيف يكون الاهتمام بالذات لتحقيق الحياة الأبدية أمراً جائزاً ومقبولاً ؟ ألا يُعَدُ هذا نوعاً ذكياً من الأنانية بالاهتمام بجانب أنقى وأبقى للنفس من الجوانب الزائلة ؟

إن المفتاح لهذا التناقض الظاهرى نجده فى جواب السيد المسيح على طلب يعقوب ويوحنا ابنى زبدى ، أو على طلب أمهما حسب رواية متى البشير - أن يكون واحد منهما عن يمينه والآخر عن يساره فى مجده . فقد قال المسيح : « من أراد أن يصير فيكم عظيماً يكون لكم خادماً . ومن أراد أن يصير فيكم أولاً يكون للجميع عبداً . لأن ابن الإنسان أيضاً لم يأت لُيخْدمَ بل ليخدِم ، وليبذل نفسه فدية عن كثيرين » (مر ١٠ : ٤٣ - ٤٥) - ونفس هذا التناقض الظاهرى نجده فى القول « من أراد أن يخلص نفسه يهلكها ، ومن يهلك نفسه من أجلى يجدها » (مت ١٦ : ٢٥) . إننا إذا أردنا أن نفهم هذه الأقوال ، ينبغى علينا أن نفرِّق بين « محبة الذات » ، و « محبة الخير » - ففى محبة الذات يكون التركيز على مصلحة الذات ورغباتها وشوقها أن تنال إشباعا لحاجاتها وتتعلق بها أطول فترة ممكنة ؛ بينما فى محبة الخير تسعى الذات إلى أن تتخطى ذاتها وتعلو عليها ، بأن تكرِّس نفسها للملكوت الله باعتباره الخير الأسمى ، وتكون على استعداد لأن تضحّى بكل شيء فى سبيل تلك الغاية ، حتى لو كان هذا الشيء هو الحياة نفسها .

هذه الإدانة تلقى ضوءاً على موقف المحبة من أحد الانفعالات الإنسانية القوية التى ينتج عنها الكثير من التوتر فى العلاقاتَ بين الناس . ومن المعروف أن الإنسان إذا استسلم لانفعال الغضب ولم يضبط أعصابه فإنه كثيراً ما يجرح مشاعر غيره ، ويهين كرامته ، فينشأ بذلك حاجز نفسىّ بينهُ وبين الآخرين ، وبذلك يكون الغضب عاملاً من عوامل إضعاف مشاعر الأخوّة بين الناس ، ومن الضرورى معالجته بأسرع ما يكون . ولقد اعتبر الرب يسوع أن واجب الإنسان مداواة مشاعر المرارة المتولدة عن الغضب ، وإعادة الصفاء إلى العلاقات ، اعتبر يسوع أن لهذا الواجب أولوية تسبق واجب التعبد لله ذاته ، « فإن قدمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك ، فاترك هناك قربانك قدام المذبح واذهب أولاً أصطلح مع أخيك . وحينئذ تعال وقدّم قربانك » (مت ٥ : ٢٣ و ٢٤) ولا يمكن التصالح بعد الغضب إلا بالغفران أو التسامح . وفى الصلاة الربانية علّمنا السيد أن نصلى قائلين « واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين الينا » (مت ٦ : ١٢) ، وقد أضاف السيد المسيح بعد ذلك قوله : « فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوى ، وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم » (مت ٦ : ١٤ و ١٥) . ونستطيع أن نتبين أهمية استعداد الإنسان للتسامح من رد السيد المسيح على بطرس عندما سأله : « ياربّ كم مرة يخطىء إلىّ أخى وأنا أغفر له . هل إلى سبع مرات » . وهنا يظهر الفكر الناموسىّ ، أى الإلتزام بالحرف ، وعدد المرات . لقد ظن بطرس أن سماحة تعاليم المسيح يمكنها أن تسمح بزيادة عدد مرات الإساءة القابلة للغفران من ثلاثة كما كان شائعاً عند اليهود ، إلى سبعة . لكن إجابة المسيح تبين ثورية تعليمه على ناموسية التفكير ، فقال له : « لا أقول لك إلى سبع مرات ، بل إلى سبعين مرة سبع مرات » (مت ١٨ : ٢١ و ٢٢) ، والمقصود هنا أن يكون الغفران بلا حدود ؛ وقد شرح السيد المسيح أعماق هذا الفكر الثورى فى التسامح فى ملكوت الله بمثل المديونين (مت ١٨ : ٢٣ — ٣٥) ، وهو يحكى قصة العبد الذى سامحه سيّده بَديْن كبيراً جداً (عشرة آلاف وزنة وهى فى تقدير البعض تساوى الآن ملايين الجنيهات) ، ولكن ذلك العبد لم يرحم رفيقه العبد الذى كان مدينا له بمئة دينار (حوالى عشرين جنيها) ، فكانت النتيجة أن سيّده سلّمه إلى المعذّبين حتى يوفى كل ما كان له عليه ، وكان ذلك بالطبع مستحيلاً .

إن العلاقة بين التسامح ووصية المحبة واضحة بلا شك ، فالتسامح هو تجاوب طبيعى عند من يعرف أن الله سامحه ورحمه ، ويقول السيد المسيح إن استمرار رحمة الله وغفرانه للإنسان ، مشروط بروح التسامح التى تظهر فى الإنسان نفسه ؛ فالشخص غير المتسامح محروم من نعمة التواضع التى تجعله مؤهلا لنوال غفران الله ، مهما كان استعداد الله أن يسامحه . هذا

تُعطى نفساً بنفس ، وعينا بعين ، وسنَا بسن ، ويداً بيد ، ورجلاً برجل ... الخ » (خروج ٢١ : ٢٣ و ٢٤ - كذلك لاويين ٢٤ : ١٧ - ٢١ ؛ تث ١٩ : ٢١) . وإن ما يثير الالتفات هو أن السيد المسيح يوصى برد الإساءة لا بمثلها ، ولا بالسكوت عليها ، ولكن بعكسها ؛ فهو لا يكتفى بعدم مقاومة الشر ، لكنه يوصى بأن يقوم الإنسان بإختياره بتجاوب من نوع آخر ، أساسه مزيد من العطاء والسخاء ، فهو يعرض له الخدَّ الآخر للضرب ، ويترك الرداء مع الثوب لمن أراد المخاصمة ، ويسير ميلين مع من يريد تسخيره ميلاً واحداً .

ولو أننا أردنا تفسير هذه الأمثلة تفسيراً ناموسياً حرفياً لشعرنا بكثير من الحيرة . فماذا يكون الموقف لو أن المعتدى لم يكتف باللطم على الخدّ بل تطاول إلى مزيد من الضرب والاهانة والإيذاء بكل الوسائل ؟ وماذا يكون الموقف لو أن ذلك الطامع المفترى لم يكتف بالرداء مع الثوب ، بل طمع فى أثاثات البيت ، وباقى المقتنيات والمنقولات ؟ وماذا لو استرسل المسخِّر فى تسخيره للإنسان وأراد أن يستعبده بالقوة عبودية دائمة ؟ هنا نرى سذاجة محاولة تفسير هذه الأمثلة كناموس حرفىّ . لكننا لو نظرنا إليها بإعتبارها نماذج لأسلوب من التجاوب فى مواجهة محاولة الإيذاء ، فإننا سنجد فيها مجالاً رائعاً للاستفادة والاستنارة . لقد رأينا من قبل أن المحبة المسيحية لا تُعطى بناء على الاستحقاق ، ولا تنتظر تجاوباً أو ردّاً لها ، إنما هى تعبير عن اتجاه دائم فى النفس ، لا يتغير بسبب ما يطرأ على من تتجه نحوهم المحبة من ظروف أو مشاعر . إنها كمحبة الله التى يقدمها للأشرار والأبرار . وعندما يقول السيد المسيح لا تقاوموا الشرَّ فهو يقصد أن نستمر فى محبة الشخص الآخر حتى لو كان ذلك الشخص فى وقت ما مؤذيا لنا ؛ لكى نبيّن أن المحبة المسيحية ليست مشروطة ، بل ان المحبة لا تبقى سلبية خامدة ولكنها بإيجابية رائعة تهتم بأن تواجه حاجات الغير مهما كانوا ؛ فإن امتحان محبتنا إذا ما كانت مثل محبة الله أم لا ، يظهر فى موقفنا من الأعداء الذين ليس من السهل على الإنسان العادى أن يتجه إليهم بالمحبة .

لم يكن خافياً على السيد المسيح أن مطالبته لتلاميذه أن يمتنعوا عن الإنتقام ممن يسببون لهم الأذى ، وأن يحبّوا أعداءهم ، لم يكن أمراً عادياً أو طبيعياً . فهو يقول صراحةً إنه لا يطلب من تلاميذه السلوك العادى المألوف عند الناس العاديين ، مثل العشارين والخطاة ، فإن هؤلاء الناس يسلّمون على أحبائهم ، ويردّون المحبة مقابل المحبة . إن يسوع يذكر أنه يطلب من تلاميذه أن يزيد برُّهم على الآخرين ليعبّروا عن محبة الله الكاملة .

وليت الصعوبات العملية فى هذه الأقوال لا تخفى عنّا المزايا السيكلوجية والحكمة الكامنة

بعدم الأمان ، بعمل يختلف تماماً عن مشاعر العدوان .

ويمكننا أن نقول إن هناك أنواعاً ثلاثة من الناس : هناك من يحاولون أن يحصلوا على أكبر قدر من الإمتيازات وأن يعطوا أقل قدر ممكن من العطاء ؛ وهناك من هم على استعداد للعطاء الكثير بقدر ما ينالون هم ؛ والنوع الثالث من هم على استعداد للعطاء الكثير دون أن ينظروا إلى ما ينالونه هم . ولا شك أن السيد المسيح يقصد النوع الأول – الذين يريدون الأخذ دون العطاء – وهو يتحدث مستخدماً لقب « الشرير » طالباً عدم مقاومتهم . هؤلاء سوف يستمرون مع أطماعهم وشرِّهم إذا ما كانوا يتعاملون مع النوع الأول المشابه لهم ؛ أو مع النوع الثانى ، فهؤلاء على استعداد للعطاء بقدر ما ينالون ، وبالتالى سوف يتنازعون معهم ، وعلى حق ، ماداموا لم يحصلوا على حقوقهم . أما إذا التقى النوع الأول بالنوع الثالث الذين يعطونهم أكثر من حقوقهم ويظهرون نحوهم أفضل النوايا ، ففى هذه الحالة وحدها يوجد أمل فى أن تتغير حياة هؤلاء الأشرار من أعداء إلى أصدقاء للغير[٢٥] .

إن هدف المسيح هو أن يتعامل الناس بالمحبة إيجابيا مع الإتجاهات الشريرة التى يتعرضون لها ، والدليل على ذلك قوله : « من سألك فأعطه ، ومن أراد أن يقترض منك فلا تردّه » (مت ٥ : ٤٢) ، هنا نتأكد أن التفسير الحرفى لا يمكن أن يستقيم ، فلو أراد الإنسان أن يطبق هذا القول « كوصيّة حرفية » فإنه بلا شك سوف يفلس بينما يشجع غيره على الكسل والبطالة . ولكننا لو نظرنا إلى هذا القول بإعتباره مرشداً لنا لنحيا بروح التعاطف الحقيقى ، والسخاء النابع من المحبة الواعية ، فسوف نحيا بروح الوصية . فعندما أرسل المسيح تلاميذه ليكرزوا ويشفوا مرضى ويخرجوا شياطين قال لهم « مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا » (مت ١٠ : ٨) وقال للغنى الذى طلب معرفة ماذا يعمل ليرث الحياة الأبدية : « اذهب بع كل مالك وأعط للفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى » (مر ١٠ : ٢١) – إن هذه الأقوال تبين لنا أن المحبة تقتضى منا نوعاً نادراً من العطاء ، هو العطاء المؤسس على إحساس عميق بحاجات الغير ، بحيث يرغب الإنسان أن يعطى بقدر ما يستطيع وليس بأقل قدر ممكن . إنه العطاء الذى نقدر عليه عندما نتحرر من القلق على أنفسنا وعلى حاجاتنا نحن . والإنسان الذى يستطيع أن يقابل الشرَّ بالخير هو الشخص الذى يكون قد تدرَّب على العطاء دون إعتبار لمقتنياته أو لنفسه . على أننا ينبغى أن نؤكد فى النهاية أنه وإن كان من الممكن أن عدم مقاومة الشرّ ، ومقابلته بالإحسان ، يحدث تغييراً جذرياً فى الطرف الآخر المعتدى ، إلا أن السيد المسيح لم يتخذ من هذا شرطاً أو هدفاً للمحبة المسيحية – فسواءً نجحت المحبة فى تغيير الشخص الآخر أو لم تنجح ؛ فإن اتجاه المحبة يجب أن يستمر حتى لو زاد الشرير فى عدوانه – وقد يتساءل البعض عما إذا كان معنى ذلك أن المسيح يتطلب حرفية الوصية ، والجواب على

أن « الأبرار » يصابون بعلمهم أو دون علمهم بنوع من البرّ الذاتى والرياء وقساوة القلب ؛ وفى نفس الوقت يُصاب « الخطاة » بخيبة أمل وشعور باليأس .

وإن تصنيف الناس بهذا الشكل ليس صحيحاً لأنه مبنى على المقاييس الإنسانية وعلى الظواهر ؛ وبالإضافة إلى أنه يصنع حواجز تمنع فعل المحبة بين الناس ، فإنه يتعارض مع روح الشفقة المسيحية . فإذا كان السيد المسيح نفسه « لم يأت ليدين العالم بل ليخلص به العالم » (يو ٣ : ١٧) ، فخليق بمن يريدون أن يتبعوا طريق المسيح أن يتركوا الحكم على الآخرين لله عالم الخفايا ، وكاشف الأسرار ؛ فإن مقاييس الله وحدها هى الصواب .

إن دينونة الآخرين التى ينهى عنها السيد المسيح هى دينونة الأفراد بعضهم لبعض ، ولا تنطبق على الأحكام التى تصدرها المحاكم المختلفة على المتهمين بعد استعراض الأدلة وسماع الدفاع عنهم ؛ كما أنها لا تحرم المسئولين عن التربية من حق توجيه الأفراد الذين يوضعون فى رعايتهم ؛ ولا تنطبق على الهيئات والجماعات التى من بين أسس نظامها الأساسى تقييم الأعمال والإنجازات أو ملاحظة سلامة التصرف عند أفرادها . فكل هذه الأساليب لا تتضمن أن من يصدر حكما معينا يكون أفضل أخلاقياً من المحكوم عليه ؛ ولكنها تضع قواعد ومعايير لنظام العمل وتتقيد بها ؛ فهى وسائل شرعية لحماية المجتمعات والمواطنين . هذا فضلاً عن أنه فى حالة القاضى فى المحكمة ، أو لجنة التقييم فى هيئة ما ، تصدر الأحكام على أساس العدالة لا على أساس المحبة . ولعلنا نتناول العلاقة بين العدل والمحبة فى مبحث آخر من هذه الدراسة .

٧ – المحبة وعلاقة الزواج والأسرة

لا نريد فى هذا السياق أن نتناول قضية العلاقات الزوجية والعائلية من وجهة نظر الأخلاق المسيحية ، فإن هذا موضوع طويل نرجو أن نخصص له بابا مستقلاً عند دراسة قضايا الأخلاق المسيحية ، لكننا نريد الآن أن نوضح الأسس الأخلاقية لهذا الموضوع فى تعليم السيد المسيح ؛ فقد اعتبر المسيح أن النظرة النابعة من الشهوة تعادل الزنا ، وفى نفس الوقت نهى عن الطلاق . ويقول بعض علماء العهد الجديد أن النص الوارد فى كل من إنجيل مرقس ولوقا عن عدم جواز الطلاق أقرب إلى ما ذكره السيد المسيح عما ورد فى إنجيل متى[٢٦] ، فقد جاء فى إنجيل متى ٥ : ٣٢ « إن من طلق امرأته **إلا لعلة الزنا** يجعلها تزنى ، ومن يتزوج بمطلقة فإنه يزنى » . بينما النص الوارد فى إنجيل مرقس ١٠ : ١١ « من طلّق امرأته وتزوج بأخرى يزنى عليها » ، وفى إنجيل لوقا ١٦ : ١٨ « كل من يطلّق امرأته ، ويتزوج بأخرى

« لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض . ماجئت لألقى سلاما بل سيفاً . فإنى جئت لأفرّق الإنسان ضد أبيه ، والإبنة ضد أمها ، والكنّة ضد حماتها ، وأعداء الإنسان أهل بيته – من أحبَّ أباً وأماً أكثر منى فلا يستحقنى ، ومن أحبَّ ابنا أو ابنةً أكثر منى فلا يستحقنى » (مت ١٠ : ٣٤ – ٣٧) .

٨ – المحبة والنظرة إلى المقتنيات

مع أنه من المعروف أن أخلاقيات المسيحية تضع المكانة الأولى للروحيات فوق الماديات ، إلا أن السيد المسيح لم يكن يرى شراً فى الماديات ذاتها ، بل كان يوافق على الفكرة اليهودية التى تؤمن بأن العالم المادى بما فيه الجسد الإنسانى ورغباته الطبيعية هو جزء من خليقة الله الصالحة . لذلك فتنمية الحياة الروحية لا تكون بالانفصال عن العالم وإذلال الجسد ؛ ولكنها تكون بالاستخدام الصحيح للعالم وللجسد لأجل الغايات السامية لملكوت الله . ومع أن الماديات ليست شرّاً فى ذاتها لكن يجب أن يُخْضعها الإنسان لما فيه خيرٌ للنفس ؛ بل إن الإنسان يمكن أن يضحى بحياة الجسد كلها من أجل الحياة الأبدية . ولذلك ينبغى أن يختار الإنسان اختياراً حاسماً فيما إذا كان يجعل الله أو المال سيداً على حياته . فلا يقدر أحد أن يخدم سيّدين ... ولا يقدر أن يخدم الله والمال (مت ٦ : ٢٤) .

ويمكننا أن نفهم جميع أقوال السيد المسيح عن المقتنيات فى نور هذا المبدأ وهو أولوية الروحانيات وسموّها . بهذا يمكن أن نفسرّ قول المسيح عندما رفض الغنى أن يبيع كل ما يملك ويعطى للفقراء ، إذ صرّح قائلاً : « ما أعسر دخول ذوى الأموال إلى ملكوت الله ... ما أعسر دخول المتكلين على الأموال إلى ملكوت الله » (مر ١٠ : ٢٣ – ٢٥) ، كذلك أقواله عن عدم القلق لأجل الطعام واللباس ، ووصيته للناس أن لا يكنزوا كنوزاً على الأرض بل فى السموات (مت ٦ : ١٩ – ٢١) . فالسيد المسيح يرى أن القلق من أجل الأمور الجسدية تجربة للإنسان يمكن أن تستحوذ على كل تفكيره فينسى القيم الروحية . وهذا القلق أمر لا داعى له لأن محبة الله تكفل للإنسان كل ضرورياته ، وينبغى على الإنسان أن يثق بالله . هذا فضلاً عن أن القلق لا جدوى منه لأن الكنوز الأرضية يمكن أن تفسد وأن تضيع ولا يمكن أن تعطى للإنسان أماناً حقيقياً . فالتعلّق بالماديات قد يشدُّ اهتمام الإنسان ويبعد فكره عن الأهداف الروحية الباقية .

وقد أوضح السيد المسيح أن الثروة تجربة للإنسان أن ينغمس فى حياة الكماليات ويتقسّى قلبه على الغير ، وبذلك لا ينمّى مشاعر المحبة مع غيره . ومثل الغنّى ولعازر يؤكد هذه الحقيقة (لوقا ١٦) ، كما أن طبيعة البشر تجعلهم كلما إزدادوا ثروة ، زاد طمعهم ، فعندما

الفصل الثالث

الفكر الأخلاقى فى رسائل العهد الجديد

تمهيـد :

لا نستطيع أن نعتبر ما سبق أن قدمناه تلخصياً لتعاليم السيد المسيح الأخلاقية ، إن ما ذكرناه هو مجرد إتجاه الفكر الأخلاق فى هذه التعاليم . والواقع إننا لا نستطيع أن نلخص تعاليم يسوع الأخلاقية ، لأن تلخيصها أو مجرد حصرها وتبويبها يفقدها صفة من صفاتها الأساسية وهى فاعليتها فى مختلف الظروف وإتساع مداها ومرونتها ، والطاقة الخلاقة الموجودة فيها ، القادرة على نقد كل نظام بشرى ، وكل سلوك انسانى ، وتوجيه النظر إلى كمال الأخلاقيات فى ضوء مشيئة الله الكاملة . إن الدراسة الصحيحة لتعاليم السيد المسيح تستدعى التوسع وليس التلخيص ، ولذلك فقد توخينا ألّا نتعامل مع هذه التعاليم كما نتعامل مع أية مجموعة من الوصايا والمبادىء الأخلاقية . لذلك فليس من الأمانة لهذه التعاليم أن نلخصها أو نسردها ولكننا سنلجأ إليها عند كل مبحث أخلاق ، لنرى فيها البحر الزاخر بالمعانى ، والكنز الملىء بالجواهر الثمينة .

لقد كانت الأناجيل ولازالت من أسهل ومن أصعب الكتب فى العهد الجديد ؛ فسهولتها تجىء من تصويرها البسيط للوقائع والأحداث بكيفية تجذب الانتباه وتستحوذ عليه ؛

اليهود ، قد جعله الله رباً ومسيحاً .

ولم تكن مظاهر الحرارة فى الإنفعالات والتعبير عنها بالتكلم بألسنة هى أهم صفات الكنيسة فى عصرْها الأول ، فإلى جانب هذه المظاهر الإنفعالية التى كانت تعبيراً عن بساطة وبكارة الإيمان والاختبار ، كانت هناك جوانب أخرى لحياة الكنيسة تتلخص فيما ذكره سفر الأعمال فى القول : « وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات » (أع ٢ : ٤٢) ، ومن هذا يظهر اهتمام الكنيسة باسترجاع تعاليم المسيح عن طريق تعليم الرسل ؛ كما أن الظروف ربطت بين المؤمنين فجعلتهم يواظبون على « الشركة » . والشركة ترجمة لكلمة يونانية يصعب ترجمتها فى كلمة واحدة ، وهى «Koinonia» وتعنى المشاركة المتبادلة ، والعلاقة العميقة للمحبة المؤسسة على مشاركة الله حياته معنا فى المسيح يسوع . وقد أصبح لهذه الكلمة مدلول خاص فى الأخلاق المسيحية فى العصر الحديث عندما ظهرت نظرية قال أصحابها إن معيار الحياة الأخلاقية تقرره متطلبات هذه الشركة بين المؤمنين فى المجتمع المتغير .

كان من مظاهر هذه « الشركة » ممارسة عشاء الرب والصلاة معاً ، كما كان من مظاهرها أيضاً فى غير العبادة أن « جميع الذين آمنوا كانوا معاً وكان عندهم كل شيء مشتركاً ، والأملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع كما يكون لكل واحد احتياج » (أ ع ٢ : ٤٤ ، ٤٥) – وقد رأى البعض فى هذه الحياة نوعاً من « الاشتراكية » ، لكن قصة حنانيا وسفيرة تبين لنا أنه لم يكن هناك إلزام بتطبيق فكرة بيع الأملاك والمقتنيات (كما ترى النظم الاشتراكية والشيوعية الحديثة) .

ولكن هذه المشاركة كانت نوعاً من الكرم التلقائى الاختيارى النابع من الشعور ، ولم تكن نظاماً اقتصادياً . والواقع أن المسيحيين الأوَل لم يفكروا ، ولم يكونوا فى وضع يؤهلهم للتفكير فى وضع نظام اقتصادى ، بل شعروا بالمحبة والشركة فأحسوا بإحتياجات بعضهم البعض ، فاشتغلوا ، وباعوا ، وقدّموا ؛ وربما ساعدهم على تنفيذ هذه الفكرة اعتقادهم بسرعة مجيء الرب ، الأمر الذى لن يجعل للمقتنيات والأملاك قيمة .

وقد حاول البعض أن ينسب إلى هذا الأسلوب ، السبب فى الفقر الذى أصاب الكنيسة فى أورشليم فيما بعد ، مما جعل بولس الرسول يهتم بأن يجمع مساعدات « للقديسين فى أورشليم » – على أننا لا نستطيع أن نجزم بصحة ذلك .

وهكذا نرى المسيحيين فى الكنيسة المسيحية المبتدئة يندفعون بعواطفهم نحو الشركة ، ووليمة المحبة ، والصلاة ، وانتظار مجيء الرب ، والمثابرة على تعليم الرسل . ولقد عرف هؤلاء

وربما كان غيره من اليهود يشعرون بنفس المشاعر ، ويتخلصون منها بمجرد القول إن الله غفور رحيم . لكن بولس لم يكن يقتنع بمثل هذه الحلول الوسطى ، فبالنسبة له إما أن يطيع تماماً أو لا - فالأمر حاسم . وهكذا سقط فريسةً لليأس « ويحى أنا الإنسان الشقىّ من ينقذنى من جسْد هذا الموت » !

وهنا ربما اعترضه خاطر عما إذا كان تلاميذ يسوع على حق فيما ينادون به عن الفداء بالصليب ... لكنه يعود ويراجع نفسه ، فإن إيمانه بعدالة الله فى عقابه يجعله يستبعد أن يكون المسيّا شخصاً مصلوباً . وهكذا صار بولس فى وسط دوَّامة فكرية كان أسلوبه للتنفيس عنها هو إزدياد شراسته فى التنكيل بالمسيحيين ، ذلك لأن رجلاً فى مثل طباعة ، متطرف ؛ فهو إمّا أن يحبّ إلى أبعد الحدود ، أو يسترسل فى الكراهية إلى آخر الشوط .

وهنا ينبغى أن نميّز بين اختبار بولس المفاجىء وبين اختبار التلاميذ الذين عاشوا مع الرب يسوع ، واستطاعوا من خلال تكريسهم وولائهم لشخصه أن يتبيّنوا فيما بعد أنه المسيح . أما بولس فإنه اكتشف ذلك فجأة فى الطريق إلى دمشق ؛ اكتشف أن يسوع الذى كان هو يضطهده ، هو المسيح ... !!

ولقد كان لهذا الاكتشاف أعظم الأثر فى تفكيره ، لقد عرف أن يسوع هو ربّه وسيّده ، بل إنه اكتشف شيئاً جديداً عن الله وعلاقته بالبشر . لقد تغيّرت فكرته عن الله وعرف أن التعبير الكامل عن شخصية الله ومقاصده ، لا يظهر فى الناموس ، بل فى النعمة ...

هذا الاكتشاف جعله هو سفيراً يحمل كلمة المصالحة ليس فقط لليهود ، بل للأمم أيضاً .

لقد ترك هذا الاختبار بصماته على شخصية بولس وعلى تفكيره الأخلاقىّ ، فلقد اختبر الله فى أسلوب جديد أو فى حياة جديدة إذ أحس بعمل روح الله وقوته ، وبذلك لم تصر الديانة فى نظره مجموعة مطاليب ؛ وأصبح السلوك الصحيح من وجهة نظره ليس نابعاً من محاولة متكلفة مجاهدة لإتّباع مجموعة تفصيلية من الوصايا ، لكن السلوك الصحيح عنده هو صدى الإيمان بعطية الله العظمى التى لا يُعبَّر عنها ، وهى يسوع المسيح نفسه ، وفى ثمر الروح القدس الساكن فى المؤمن . إننا نقول إن الأخلاق عند بولس الرسول هى أولاً أخلاق الحياة المفدّية أو الحياة الجديدة ، ولا نستطيع أن نفهم فلسفته الأخلاقية إلّا إذا درسناها فى ضوء اختباره وإيمانه .

لقد احتفظ بولس بالخطوط الرئيسية فى التفكير اليهودى عن الله ، مثل سلطان الله فى الخليقة ، وضرورة طاعة مشيئة الله ، وصفات الله كأب وخالق وقاض وديَّان للعالم ،

يجب أن يعترف بعجزه ويلقى بنفسه فى أحضان النعمة واثقا أنه سينال الغفران . ولسوف يجد الله أهلاً لهذه الثقة لأن الله أظهر رحمته ومحبته للبشر عن طريق الصليب ؛ فالصليب هو التعبير العملى الذى ظهرت فيه رحمة الله ؛ وهو تعبير مرتبط بآلام وموت المسيح إبن الله الوحيد . وإذ يؤمن الإنسان بنعمة الله ومحبته يتبرر ؛ إنما هو لا يتبرر بسبب الإيمان ، كأنما الإيمان فضيلة اشترى بها التبرير ، كلا ، بل يتبرر بالنعمة أى فضلاً بدون جهد ولا فضيلة . « بالنعمة أنتم مخلصون بالإيمان » . على أننا لا ينبغى أن نتوقف عند هذا الحد ، فإن المؤمن إذ يتحدد بالمسيح ينال قوّة « ليتمم خلاصه » ، أى أن الخلاص ليس مجرد غفران الخطايا ، بل هو أيضاً نوال قوة بروح الله لهزيمة الخطية فى حياته . وعندما يحرر روح الله روح الإنسان ويمتلكه ، يمكن للإنسان أن يسلك « فى الروح » وليس « فى الجسد » فيكون المسيح فيه وهو فى المسيح ، إذ صار فى المسيح خليقة جديدة .

إن بولس يوضح العلاقة بين نعمة الله ، وجهد الإنسان ، فى الآية القائلة : « فتمموا خلاصكم بخوف ورعدة ، لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تفعلوا لأجل المسرّة » (فى ١ : ١٢ و ١٣) . هذه هى الخليقة الجديدة ، أو العهد الجديد مع الله ، وهو ليس عهداً مكتوباً بشرائع ونصوص ، ولكنه عهد فى الروح ، « والحرف يقتل ولكن الروح يحيى » (٢ كو ٥ : ١٧) .

لقد كانت هذه العلاقة الجديدة مع الله هى الوازع الذى يشير اليه بولس دائماً ليحثّ المسيحيين على الجهاد لتكون حياتهم مختلفة عما كانت عليه ، ونحن نرى ذلك فى مواضع كثيرة ، فهو يقول لأهل كورنثوس مثلاً :

« ألسم تعلمون أن أجسادكم هى أعضاء المسيح . أفآخذ أعضاء المسيح وأجعلها أعضاء زانية . حاشا .. أم لسم تعلمون أن جسدكم هو هكيل للروح القدس الذى فيكم .... » (١ كو ٦ : ١٥ و ١٩) .

إن بولس لا يصف مثاليات ويطلب من الناس أن يتبعوها . ولكنه يصف حقيقة الحياة الجديدة التى دخلوها فعلا ، ويوضح للناس ما تتطلبه هذه الحياة فى سلوكهم . إن أخلاقيات بولس هى أخلاقيات الفداء ، والحياة الجديدة . هذه الحياة الجديدة إنما يحياها الإنسان وهو جزء أو عضو من جسد المسيح الذى هو الكنيسة ، وفى هذه الكنيسة علاقات بين الأعضاء ، يحيط بهم العالم الوثنى ، لذلك كان على بولس أن يعالج المواقف الناتجة عن هذه العلاقات . وهكذا نجد فى أحاديثه موضوعات تتعرض لمشكلات عملية مثل ما هو موقف الكنيسة من بعض أعضائها الذين انغمسوا فى علاقات جنسية نتيجة تجارب العالم الوثنى حولهم ؟ وهل

النجسة والأيام المقدسة الخ ... وهو يكتب قائلاً : « فقبلما جاء الإيمان كنا محروسين تحت الناموس مغلقاً علينا إلى الإيمان العتيد أن يُعلن .. إذاً قد كان الناموس مؤدبنا إلى المسيح لكى نتبرر بالإيمان . ولكن بعدما جاء الإيمان لسنا بعد تحت مؤدب » (غل ٣ : ٢٣ - ٢٥) لذلك يرفض بولس محاولات دعاة التهود أن يفرضوا عبودية الناموس على الغلاطيين مرة ثانية ويهاجمهم بعنف وشدّة .

على أن الحرية المسيحية عند بولس ليست مجرد الحرية من الناموس ، لكنها ما دامت نابعة من وجود المسيح وقوته فى حياة المؤمن فهى حرية من الخطية . فمادام المسيحى يحيا « فى الروح » و ليس « فى الجسد » ، فهو ليس تحت عبودية الخطية وما دام الأمر كذلك فلا يمكن أن تكون حريته حرّية عابثة غير مسئولة . إنها حرية محكومة بروح المسيح . ويظهر بولس هذه الحرية المسئولة فى ثلاثة أمور :

(١) بعد أن أوضح لأهل كورنثوس أن من يعرفون حقيقة الأصنام وأنها ليست آلهة فعلاً ، يمكنهم أن يأكلوا من اللحم والطعام المقدَّم لهم أياً كان ، حتى ولو كان مذبوحاً لوثن ، لكنه حذرهم فى نفس الوقت لئلا تكون هذه المعرفة سبباً فى كبريائهم فيسيئون إلى من لا يعرفون هذه الحقيقة فيتعثرون « ولكن انظروا لئلا يصير سلطانكم هذا معثرة للضعفاء » (١ كو ٨ : ٩) . أى أن حرية الفرد من الشكوك المؤسسة على الجهل والخرافات ، لا ينبغى أن تجعله يتصرف بكيفية لا تبالى بتأثير سلوكه المتحرر هذا على من لا يزالون تحت تأثير هذه الشكوك والجهالات .

(٢) ينبغى ألا تكون هذه الحرية وسيلة للحصول على إمتياز ذاتى ، بل يجب أن تكون وسيلة لخدمة الآخرين . ويتخذ بولس من نفسه مثلاً ، فهو يذكّر الكورنثيين أن له حقوقاً معينة ، ومع ذلك لا يطالب بها ، لكى ييسر خدمة الإنجيل . وفى هذا يقول : « ألعلنا ليس لنا سلطان أن نأكل ونشرب . ألعلنا ليس لنا سلطان أن نجول بأخت زوجة كباقى الرسل وإخوة الرب وصفا » (١ كو ٩ : ٤ و ٥ وما بعدها) . فمع أن له هذه الحقوق ، لكنه يتنازل عنها لكى يجعل إنجيل المسيح بلا نفقة (١ كو ٩ : ١٨) ، لذلك كان ينفق على نفسه . ويقول « فإنى إذ كنت حرّاً من الجميع ، استعبدت نفسى للجميع لأربح الأكثرين » (١ كو ٩ : ١٩ - ٢٢) .

(٣) ينبغى ألّا تستخدم الحرية فرصة للجسد (غل ٥ : ١٣) لأن الجسد يشتهى ضد الروح والروح ضد الجسد (غل ٥ : ١٧) فإن كنا نعيش بالروح (أى أننا ننسب سبب حياتنا الجديدة إلى عمل الروح) فلنسلك أيضاً بحسب الروح (أى نجعل عمل

قط ... الابن الوحيد الذى هو فى حضن الآب هو خبرٌ » (يو ١ : ١٨) فماذا فعل بولس الرسول بتعليم يسوع عن المحبة ؟

(١) لقد اتبع بولس نفس الإتجاه الذى أشار إليه الرب يسوع المسيح ؛ وهو لم يكشف أعماقاً أكثر ، بل شرح متطلبات المحبة فى الحياة العملية . لذلك نراه يكتب فى رسالة رومية صورة عملية لقول المسيح : « لا تقاوموا الشرّ » فيقول « لا تجازوا أحداً عن شرٍّ بشرّ » (رو ١٢ : ١٧) . ثم يقول أيضاً « فإن جاع عدوّك فاطعمه ، وإن عطش فاسقه ، لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه . لا يغلبنّك الشرُّ ، بل اغلب الشرَّ بالخير (رو ١٢ : ٢٠ و ٢١) - فالمحبة تطفىء نار الغضب ، وتحوّلها إلى نار الندم .

(٢) كما أن بولس شرح كيف أن الفضائل المختلفة تنبع من المحبة ، وهذه الفضائل هى التى تكوّن الشخصية المسيحية . **فالتواضع** : من مظاهر المحبة لذلك يقول لأهل فيلبى :

« فتمموا فرحى حتى تفتكروا فكراً واحداً ولكم محبة واحدة بنفس واحدة مفتكرين شيئاً واحداً لا شيئاً بتحزّب أو بعجب بل بتواضع حاسبين بعضكم البعض أفضل من أنفسهم .. فليكن فيكم هذا الفكر الذى فى المسيح يسوع أيضاً ... الخ » . (**فيلبى ٢ : ٢ - ٨**) .

كذلك **الاحتمال** يعتبر من مظاهر المحبة ويظهر هذا من نصيحته لأهل كورنثوس عندما انقسموا بسبب أكل ما ذبح للأوثان ، فقد نصح كلا من الطرفين أن يحتمل الآخر فى المحبة (١ كو ٨) . كما قال نفس المعنى فى رسالة رومية « لا يزدر من يأكل بمن لا يأكل ، ولا يَدنْ من لا يأكل من يأكل . لأن الله قَبلَهُ » (رو ١٤ : ٣٠) - وكل ما كان يوصى به هو أن لا توضع معثرة للأخ الضعيف ، لأن المحبة تجعل الإنسان يمتنع عمّا يعتقد أنه مسموح به لكى لا يهلك الأخ الضعيف الذى مات المسيح لأجله (رو ١٤ : ١٥) - كما يضيف بولس إلى التواضع والاحتمال فضيلة **الصبر وطول الأناة** والمقصود بهما البطء فى الغضب . يقول أحد الشراح : « كان الغضب فى نظر بولس - بإعتباره متأثراً بالفلسفة الرواقية - يعتبر من الرذائل ، ومع ذلك فقد اختبر هو بنفسه الغضب فى بعض الأحيان ، ونراه يكتب أحياناً إلى أبنائه فى الإيمان بلهجة غاضبة ، ولكن ليس بسبب شخصىّ ، إنما بسبب ما كان يراه معارضاً لربّه وسيّده . وهو يرى أن هناك خطراً إذا استقر الغضب فى النفس لأنه يقود إلى المرارة وإلى غيره من الرذائل ، وهكذا يمزق روح السلام والوحدة فى الجماعة[٣٥] . وهكذا يمكننا أن

كان بولس يفكر فى هذه الموضوعات ، ونصب عينيه جماعة المؤمنين فى الكنيسة ، أعضاء الجسد الواحد – ولعل مشغوليته بحالة الكنيسة الداخلية جعلته لا يشير كثيراً إلى مشكلات المجتمع الأكبر خارج الكنيسة . إلا أنه بين حين وآخر يشير إشارات عابرة إلى علاقة المسيحيين بمن هم خارج الكنيسة فيقول لأهل رومية : « سالموا جميع الناس إن أمكن على قدر طاقتكم » (رو ١٢ : ١٨) ولعله يشير بذلك إلى الجماعات الوثنية خارج الكنيسة .

وربما كان اتجاه بولس المحافظ تجاه المؤسسات الاجتماعية ، مع أنه كان اتجاهاً حكيماً فى ضوء الظروف السائدة حينذاك – قد فتح مجالاً كبيراً للنقاش وسوء الفهم فى تاريخ الكنيسة اللاحق ، فقد تصور البعض أن بولس يقبل نظام الرقّ (الاستعباد) دون معارضة ، وينصح العبيد أن يخدموا سادتهم ويطيعوهم ، ثم ينصح السادة بحسن معاملة العبيد . ويفسر البعض هذا الموقف بأنه كان موقفا مرحليا حتى لا تتعطل رسالة المسيح لو انشغلت الكنيسة فى أول عهدها بخلاف حول هذه القضية مع المسئولين فى الدولة الرومانية ، لأن الرقّ كان جزءاً أساسياً من نظام الدولة(٣٧) .

ويهمنا أن نذكر أن المسيحية لم تشرع للعالم لكنها رسمت الطريق أمام المؤمنين ، كيف يسلكون فى ظروف وجودهم فى العالم ، ووجهت أنظارهم إلى مبادىء التحرر الداخلى الذى يقود فى وقته إلى التحرر فى مجالات الحياة المختلفة . ويظهر ذلك من رسالة الرسول بولس إلى فليمون عن العبد أنسيمس ، ومن قوله فى رسالته إلى كنيسة كورنثوس : « دعيت وأنت عبد فلا يهمك ، بل وإن استطعت أن تصير حرّاً فاستعملها بالحرى . لأن من دعى فى الرب وهو عبد فهو عتيق الرب . كذلك الحر المدعو وهو عبد للمسيح . قد اشتريتم بثمن فلا تصيروا عبيداً للناس » (١ كو ٧ : ٢١ – ٢٣) . أما فى النواحى الاقتصادية ، فإن بولس لا يتحدث كثيراً ، سوى أنه يحذر من سلوك الكسالى الطفيليين ، فيوصى بأنه « إن كان أحد لا يريد ان يشتغل فلا يأكل أيضاً » (٢ تس ٣ : ١٠) . كما أنه يقول إن من يشتركون فى الخيرات الروحية ينبغى أن يشتركوا أيضاً فى العطاء السخى للفقراء وللمعلمين (رو ١٥ : ٢٧) – لكن بولس لا يتكلم كثيراً عن أخطار الغنى ، ربما لأن هذه القضية لم تكن تشكل مشكلة بالنسبة لأعضاء الكنيسة فى عهده اذ كانت الغالبية من الفقراء .

أما فى القضايا السياسية فإن بولس الرسول ينصح المسيحيين بأن يخضعوا لأصحاب السلطة ، لأن الله هو الذى أقام السلطات القائمة ، ومن يقاوم السلطة يقاوم تدبير الله (رو ١٣ : ١ – ٧) وبالنسبة للظروف التى كانت سائدة فى عصره ، كانت هذه النصيحة غاية فى الحكمة ، فقد كان بولس يدرك تماماً مزايا السلام الذى أوجدته الدولة الرومانية وفائدته

شأنه أن يجعل جيرانهم من الوثنيين يمجّدون الله (٢ : ١٢) .

ويقدم بطرس النصائح إلى مجموعات متباينة من الناس بشأن مختلف العلاقات الموجودة فى المجتمع ، فهو يوصى الخدام أن يخضعوا للسادة حتى القساة منهم متمثلين بالمسيح (٢ : ١٨ - ٢٢) وينصح بالخضوع لسلطة الدولة (٢ : ١٣ - ١٧) ثم يقدم نصائحه إلى النساء (٣ : ١ - ٦) والرجال عن معاملتهم للنساء (٣ : ٧) والرعاة (٥ : ١ - ٤) والأحداث (٥ : ٥) ولأن هذه الرسالة كتبت فى وقت كان المسيحيون فيه يتألمون لأجل البّر فإن الرسول يشجعهم لأن آلامهم لأجل البّر تمجد الله (٤ : ١٥ ، ١٦) - وفى خاتمة الرسالة يذكر الرسول أن لله المجد والسلطان إلى الأبد (٥ : ١١) . وهذا يؤكد يقينه أنه رغم الإضطهاد فإن الملك هو للرب ، ولذلك يجب أن نثق به ونطيعه .

(٢) رسالة يعقوب

وهذه الرسالة هى أكثر رسائل العهد الجديد تنبيراً على الأخلاق العملية ، وفيها يحذر الكاتب من عدم الثبات ، ويهاجم الكبرياء الاجتماعية التى تحابى الأغنياء . ويشير بإسهاب إلى خطايا اللسان والميول الدنيوية والكبرياء والبخل وظلم الأجراء والعمّال .

وقد اشتهرت هذه الرسالة بهجومها على فكرة الإيمان المخلّص دون الأعمال ، مما حدا بلوثر أن يطالب بحذفها من الأسفار القانونية للعهد الجديد ؛ على أن الدارس المدقّق يلاحظ أن الإيمان بالمعنى الذى يذكره يعقوب يختلف عن الإيمان بالمعنى الذى يذكره بولس فقد كان بولس يعنى بالإيمان التجاوب الشخصىّ مع نعمة الله فى المسيح ، الأمر الذى يؤدى حتماً إلى الطاعة والمحبة . والإيمان « الميّت » فى نظر بولس ليس إيمانا ، وكما يقول يعقوب إن الشياطين يؤمنون ويقشعرّون . أما المقصود بالإيمان هنا فهو مجرد الاعتقاد بالله ؛ لكن الإيمان المخلّص هو تصديق وثقة وعلاقة وتسليم . وعلى العموم فإن رسالة يعقوب تحذّر من استبدال الصلاح الشخصىّ بالتديّن الظاهرى الباطل ؛ والواقع أن مثل هذا التحذير لازم لأن كثيرين قد يستغلّون بعض تعاليم الحرية فى المسيحية ليحوّلوها إلى إباحية ، وهذا ما لايتفق مع روح المسيحية .

(٣) رسائل يوحنا

فى خلال الفترة التى عاشتها الكنيسة المسيحية الأولى ، تعرضت لأخطار متعددة ، منها الناموسية اليهودية ، ومنها عبادة الإمبراطور إذ كانت الكنيسة تحيا فى مجتمع تحكمه الدولة الرومانية ، وفى نفس الوقت تحمل المسيحية التراث اليهودى . على أن أخطر ما تعرضت له

يناقض نفسه عندما يقول :

« إن قلنا إنه ليس لنا خطية نضلّ أنفسنا وليس الحق فينا .. إن قلنا إننا لم نخطىء نجعله كاذباً وكلمته ليست فينا » (١ يو ١ : ٨ و ١٠) **ثم يقول :**

« كل من هو مولود من الله لا يفعل خطية لأن زرعه يثبت فيه ، ولا يستطيع أن يخطىء لأنه مولود من الله » (١ يو ٣ : ٩)

لكننا إذا فهمنا الفكرة التى يناقشها ، زال هذا التناقض الظاهرى . إنه يرد على أولئك الذين يقولون إننا لم نخطىء لأنه لا يمكن لما يفعله الجسد أن يؤثر على ذات الإنسان الذى لديه العلم والمعرفة . ويوحنا يقول لهم إنهم يخدعون أنفسهم . ويرد أصحاب المذهب الغنوسى ويقولون : « ان استنارتنا رفعتنا إلى مستوى لا أهمية للتصرفات فيه ، لذلك يمكننى أن أخطىء بجسدى كما أشاء وأكون فى نفس الوقت مسيحياً » . ويوحنا يعارض ذلك بالقول كلا ، فإننا لا نستطيع أن نقول إننا مولودون من الله ، ومع ذلك نلقى بأنفسنا فى الخطية . إن الله بار ، « وإن علمتم أنه بار هو فاعلموا أن كل من يصنع البر مولود منه » (١ يو ٢ : ٢٩) . ثم يضيف يوحنا امتحانا آخر مع امتحان البر ، هو امتحان المحبة ، فيقول : « نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة » (١ يو ٣ : ١٤) وقد كتبت الرسالة أيضاً فى وقت الإضطهاد ، فكان من مظاهر المحبة الاستعداد للتضحية لأجل الإخوة ، سواء بالماديات أو بالحياة نفسها . لذلك « من كان له معيشة العالم ونظر أخاه محتاجاً وأغلق أحشاءه عنه فكيف تثبت محبة الله فيه » (١ يو ٣ : ١٧) « بهذا قد عرفنا المحبة أن ذاك وضع نفسه لأجلنا فنحن ينبغى لنا أن نضع نفوسنا لأجل الإخوة » (١ يو ٣ : ١٦) .

وبالإضافة إلى إمتحان البرّ ، والمحبة ، يضيف يوحنا إمتحاناً آخر هو الاعتقاد الصحيح . لقد أنكر الغنوسيون التجسد لاعتقادهم أن المادة شرّ ، وقالوا إن يسوع الذى عاش فى الجسد يختلف عن المسيح الذى فى السماء ؛ والمسيح كائن علوى أسمى من الإنسان وأقل من الله ، وقد اختار الله شخصية يسوع « الإنسان الصالح » ونزلت روحه فيه عند المعمودية ، وتركته قبل الصليب . ولا شك أن هذا المعتقد يهدم المسيحية من أساسها ، إذ ينكر عملية الفداء الكفارى والموت النيابى ؛ لذلك يؤكد يوحنا أن « كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء فى الجسد فهو من الله ؛ وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء فى الجسد فليس من الله » ..(١ يو ٤ : ٢ و ٣) .

إن المؤمن يستطيع أن ينتصر بإيمانه على آثار التفكير الوثنى ويطرد تفكير العالم وشهواته : شهوة الجسد ، وشهوة العيون ، وتعظم المعيشة ، ويكون هذا الانتصار بالإيمان ، أى أن

مراجـــع وهـــوامش

الباب الثانى

الأساس الكتابى للأخلاق المسيحية

(١) شرح أصول الايمان للدكتور أندرو وطسن والدكتور القس ابرهيم سعيد – دار الثقافة سؤال ٦٣ ، ٦٨ على سبيل المثال

(٢) Rudolf Otto, **The Idea of the Holy,** London & New York: Oxford University Press, 1931

(٣) George Thomas, **Christian Ethics and Moral Philosophy,** New York: Charles Scribners' Sons, 1955 ص ٧ ، ٨

(٤) المرجع السابق ص ٩

(٥) Paul Ramzy, **Basic Christian Ethics,** New York: Charles Scribners Sons, 1950 ص ٧ ، ٨

(٦) المرجع السابق ص ١٤

(٧) المرجع السابق ص ١١

(٨) Plato, The Republic, II ص ٣٥٩

(٩) Reinhold Niebuhr, **An Interpretation of Christian Ethics,** New York: Harpers, 1935 ص ٣٩

(١٠) المرجع السابق ص ٤٦

(١١) Albert Schweitzer, **The Quest of the Historical Jesus,** 1910

(١٢) ص ٢٧ – المرجع السابق George Thomas

(١٣) دكتور مصطفى محمود فى مقال « ماذا قالت لى الخلوة » مجلة صباح الخير – القاهرة ١٩٧٠

(١٤) تفسير العهد الجديد لوليم باركلى . انجيل متى – ترجمة المؤلف ١٦٩ ، ١٧٠

(١٥) Andres Nygren, **Agape and Eros,** Vol. I, New York: Westminster, 1953 ص ٩٣

(١٦) المرجع السابق ص ٤٦ George Thomas

(١٧) المرجع السابق ص ٤٦ – ٥١

(١٨) المرجع السابق ص ٦٣ ، ٦٤ Andres Nygren

(٣٦) كتاب « نشيد المحبة » للمؤلف دار الثقافة ١٩٧١
(٣٧) المرجع السابق ص ٢٠٨

M.S. Enslim

الباب الثالث

الإنسان فى المسيحية

الفصل الأول

طبيعـــة الإنســـان

يهتم كثيرون من المسيحيين بدراسة شخصية الله ، وشخصية المسيح ، وشخصية الروح القدس ، ويعتقدون أن هذه الدراسة تنير عقولهم وأفكارهم بالنسبة للحقائق الروحية اللازمة لهم فى حياتهم وسلوكهم ، لكن القليلين هم الذين يفكرون فى دراسة « الإنسان » . ويتصور البعض أن دراسة الإنسان هى من صميم اختصاص علماء الفسيولوجيا أو علماء النفس .

ويغيب عن ذهن هؤلاء ان إهمال دراسة عقيدة المسيحية عن « الإنسان » ، يجعل دراساتهم عن الله المثلث الأقانيم ، دراسة غير مرتبطة بحياتهم ، أشبه بطائر يحلق فى الجو ولا يمكنه أن يضع أقدامه على الأرض ذلك لأن الله يتعامل مع الإنسان ، من خلال جميع الحقائق الروحية الهامة كالخلاص والغفران والفداء والرجاء ، وكلها تتعلق بما يعمله الله لهذا « الإنسان » .

ونحن إذا اكتفينا بما يقوله علم الفسيولوجيا أو علم النفس أو سائر العلوم الإنسانية عن الإنسان ، نكون قد أهملنا جانباً هاماً هو إعلان الله عن هذا الإنسان ، وطبيعته وواجباته ومسئوليته . ونحن لا ندّعى أن المسيحية تقدم لنا نظريات جديدة فى علم النفس أو الفسيولوجيا عن الإنسان ، لكننا نقول إن هذه العلوم وحدها لا تعطينا الصورة الكاملة عن الإنسان .

والموت ، فيصرخ « ويحى أنا الإنسان الشقى ، من ينقذنى من جسد هذا الموت ! ! » .

ولم يكن بولس وحده هو الذى اتخذ هذا الاتجاه ، بل إن السيد المسيح نفسه أشار مرات كثيرة إلى وجود الشر إلى جوار الصلاح فى هذا العالم ، فالوالدون الذين يعطون أولادهم عطايا جيدة ، هم فى الحقيقة أشرار . وقد حذّر تلاميذه من شرور الناس واضطهادهم وتوقع الألم لنفسه ولتلاميذه بسبب هذه الشرور .

صحيح أن السيد المسيح كان يتوقع من الناس الاستجابة لندائه بالتوبة والإيمان ، لكننا عندما نتعمق فى دراسة أقواله ، نجده فى مثل الزارع (مثلا) يكشف عن وجود عوامل داخل الإنسان ، وفى قلبه تعطل كثيرين عن الاستجابة ، مثل هموم العالم وغرور الغنى وعمل الشيطان وعدم تأصل الكلمة فى ذات الإنسان .

هذا هو التناقض الظاهرى الموجود فى العهد الجديد : نظرته المثالية تفترض السموّ فى الإنسان المؤمن وتوحى بقدرته على الوصول إلى القداسة ، أما نظرته الواقعية للإنسان الطبيعى فتبدو متشائمة ، فتراه عاجزاً عريانا من كل برّ وقدرة – هذه هى المعضلة التى تواجه الكثيرين من الدارسين،فهم يجدون أنفسهم أمام ورطة فكرية :

إما أن تعاليم المسيح الأخلاقية السامية تناسب الإنسان (فى المسيح) وتتفق مع طبيعته الجديدة وبالتالى تكون قدرات الإنسان المتجدد الأخلاقية عظيمة ، وهذا يقود إلى نظرة مجيدة إلى الإنسان وعقله وصلاحه وقدراته . ولكن فى هذه الحالة ماذا نقول عن التعاليم الكتابية التى نفهم منها عجز الإنسان وخطيئته المتأصلة فيه ... **أو** إن تعاليم المسيح الأخلاقية لا تلائم حياة الإنسان لأنه بطبعه شرير ، وبالتالى لا يستطيع الإنسان أن يطبق تعاليم المسيح . وفى هذه الحالة نتساءل : فلماذا علمّ المسيح هذه التعاليم إذا كان يعلم عجز الإنسان عن تطبيقها .

إننا إذا أخذنا بالفكرة الأولى المتفائلة ، نحتفظ بالمُثُل المسيحية للأخلاق ، ونهجر النظرة الكتابية الأخرى إلى واقع الإنسان أو نحاول تعديلها أو تفسيرها بشكل أو آخر كالقول بأنها تصف الإنسان قبل التجديد أو ما شابه ذلك . وهذا ما فعله كثيرون من البروتستانت وأصحاب مذهب الكماليين الذين ينادون بقدرة الإنسان على التحرر من الخطية .

وإذا أخذنا بالفكرة الثانية المتشائمة ، أحسسنا بواقعية تعليم الكتاب عن الشر المتأصل فى البشر ، ورفضنا المثالية الأخلاقية المسيحية ، وهذا ما فعله بعض الكلبيين (Cynics) الذين لا يؤمنون بصلاح البشر ... لكننا كمسيحيين نواجه تعاليم الكتاب ودعوته إلى الكمال فتصادفنا الحيرة أحيانا وخيبة الأمل أحيانا أخرى ... هل يا ترى نستطيع أن نتخطى هذا

(٣) يمتاز الإنسان بأن باستطاعته السيطرة على سلطان الغريزة وذلك بتحكيم عقله فى إرادته .

(٤) يستطيع الإنسان أن يضع لنفسه نظاماً سياسياً واجتماعياً . ويمكن تلخيص هذه النظرة المثالية إلى الإنسان فى ثلاث صفات هى :

كرامة الإنسان ، وحريته ، واستقلاليته . لذلك فإن هذا الإنسان يستطيع استغلال قدراته الفردية ، وعندما يستخدم الإنسان قدراته بأفضل أسلوب يتحقق الخير للإنسان ....(١) .

هذه النظرة الرفيعة السامية إلى الإنسان ، هى التى ألهمت القادة والمصلحين للقيام بإنجازات رائعة ومجهودات عظيمة فى العالم ، وهى أساس جميع النظريات التى تؤمن بقيمة الإنسان والتى نتج عنها تطوير المجتمع فى خدماته الطبية والثقافية والإنسانية ، وفى الثورات الفكرية والاجتماعية التى تطالب بالديمقراطية والحرية .

وهذه النظرة المثالية هى التى قادت بعض المفكرين المسيحيين إلى أن ينادوا بالإنجيل الاجتماعى وتطوير العالم الحاضر والتحرر من التشاؤم .

على أن هذه النظرة المثالية ، قد أُصيب أصحابها فى الحقبة القصيرة الماضية بصدمة كبرى ، فقد قامت فى العالم على نطاق متسع حروب مدمّرة أبرزت قدراً كبيراً من التصرفات الوحشية غير الإنسانية من الناس نحو بعضهم البعض ، واستخدمت أساليب وأسلحة مفزعة لتعذيب الناس والفتك بهم ... وظهر الإنسان فى بعض المواقف فى صورة أكثر وحشية من الوحوش نفسها ... وحتى التقدم العلمى ، الذى هو حصيلة الفكر والعقل ، حوّله الإنسان إلى تقدم فى وسائل التدمير والظلم والخسّة ... فتجسس الناس على بعضهم البعض ، اخترقوا قدسية الفرد وحريته ... أهانوا آدميته ... وفى الوقت الذى ينادى فيه المصلحون بسمو الجنس البشرى ، توجد حالات صارخة من التفرقة العنصرية . وتساءل أصحاب النظرة المثالية : هل هذا هو الإنسان السامى المثالى فى فكره وخلقه ؟

ورغم ازدياد جهود الاصلاح ، ازدادت الشرور الفردية والاجتماعية حتى ضعفت الثقة فى قدرة الإنسان على الوصول إلى حل مناسب ، واكتشف الإنسان قصور نظرته .

وهكذا أنزلت النظريات الطبيعية الإنسان من الدرجة المثالية الرفيعة ، وجعلته جزءاً من الطبيعة . وإذا كان الإنسان يقبل هذه النظريات ، فذلك لأنه سمح لنفسه أن ينبهر بنجاح الأسلوب العلمى فى التعامل مع الطبيعة لدرجة أنه نسى محدودية هذا الأسلوب وقصوره فى التعامل مع الروح والقيم الروحية .

ذلك لأن النظريات الطبيعية تناقض كل ما يستطيع الإنسان أن يدركه عن نفسه عندما يستجيب لمداركه الفطرية عن نفسه من الداخل . وعندما يفكر الإنسان بعقله ، فإنه يتبع القوانين المنطقية (العقلية) لا القوانين الطبيعية . وفى اختبار الإنسان الدينىّ ، يجد الإنسان أنه يواجه كائنا إلهياً متسامياً يعتمد عليه فى وجوده ، ومن خلال اختباراته الأدبية يدرك أن هناك نظاماً للخير والشر خارجاً عنه ومستقلا تمام الاستقلال عن رغباته واختياراته ... وبالإيجاز ، عندما ينظر الإنسان إلى نفسه من داخلها ، يدرك أنه كائن روحى وفى نفس الوقت هو ابن الطبيعة . أما إذا ترك رؤيته تتعطل وتعتم بسبب ادعاءات أولئك الذين يؤلهون الأسلوب العلمى ، أو بتسلط الماديات على نفسه ، فحينئذ سيدخل إلى دائرة الشك .

إن النظريات المثالية – كما ذكرنا – نظرت إلى الإنسان من جانب واحد ، وتجاهلت الجانب الثانى ، هكذا نقول عن النظريات الطبيعية أيضاً ، فهى نظرت إلى الجانب الجسدى فقط للإنسان وأهملت الجانب الروحىّ .

٣ – النظرة المسيحية إلى الإنسان

إن وجهة النظر المسيحية تأخذ بالجوانب الصحيحة فى كلا الاتجاهين المثالى والطبيعى ، وتنظر إلى كل اتجاه بإعتباره يشتمل على جزء من الحق . لكنها لا تكتفى بذلك ، أو لا تحاول أن توفق بين هذه وتلك ؛ لكن عظمة المسيحية تبدو فى أنها تأخذ هذين الاتجاهين معاً كأجزاء من الحق وتضيف إليهما أبعاداً أخرى لا تصل النظريات السابقة إليها .

(١) الإنسان مخلوق

يعلمنا الكتاب المقدس أن الله خلق الإنسان . لذلك نقول عن الإنسان إنه « مخلوق » ، وبهذا نصف الإنسان بصفات يتفق فيها مع سائر المخلوقات ، لكن فى نفس الوقت لا يمنع هذ اتصافه بصفات يتميز بها عن غيره من المخلوقات .

أ – الإنسان مخلوق – وبذلك فلابد أن له خالقاً . فالإنسان لم يخلق نفسه ، بل إن وجوده

ب – والإنسان مخلوق بمعنى أنه **محدود** . فكل مخلوق محدود . والإنسان يحيا فى دائرة الزمن وتتسم حياته بالتغيّر وعدم الثبات كسائر المخلوقات . وإن القيم والانجازات التى يحصل عليها مهدّدة بالتقلقل وأحيانا تكون غير محققة الدوام بسبب وجود الطوارىء غير المنتظرة فى الطبيعة كالمرض والضعف والفساد والزوال ، كذلك أيامه محدودة ، ولعمره نهاية .

هذه المحدودية هى أساس الصرامة والشدّة والمآسى التى نجدها فى الحياة الإنسانية ، فالإنسان يكتشف مرات كثيرة أن انجازاته مهددة ، وأن آماله ضائعة ، وهذا سبب الحزن والشعور بعدم الكمال فى انجازات الحياة البشرية .

ولقد قادت هذه الحقيقة بعض العقول الحساسة ، تنظر إلى ظواهر الأمور وليس من خلال الله إلى شعور بالتشاؤم ، وكتب الجامعة يقول « باطل الأباطيل الكل باطل ولا منفعة تحت الشمس » – كذلك كتب وعلّم بوذا وكثيرون من المتشائمين .

لكن هذه الحقيقة نفسها زرعت فى نفوس نوع آخر من الناس رجاء الخلود لتحقيق ما فشل البشر فى تحقيقه على هذه الأرض من سعادة كاملة وخير وفير .

ولذلك كان من أهداف الأشواق الدينية ، الخلاص من الخسارة والفشل والإحباط التى نشعر بها فى وجودنا الأرضى الزمنى .

والإنسان **محدود فى قدراته العقلية** . فهو كمخلوق لا يمكن أن يكون كامل المعرفة ومعلوماته محدودة تتأثر بعوامل الخطأ ، ومن المستحيل على الإنسان أن يصل إلى الحق المطلق أى الذى لا يقبل المناقشة . هذه الحقيقة تجعل العاقل من البشر يتبين أنه لا يجب أن يكون هناك مكان للتعصب والكبرياء العقلية فى حياته ، وأن محدودية قدراته العقلية ، تجعله متسامحا فكرياً معترفاً دائماً بإمكانية وقوعه فى أخطاء فكرية .

والإنسان **محدود فى قدرته الأخلاقية** لذلك فهو لن يصل إلى الكمال المطلق ، لذلك يكتفى الناس فى هذا المسعى بالأخلاق التقليدية المألوفة المتعارف عليها ، وهى ليست أخلاقاً مطلقة بل نسبية .

والإنسان محدود فى حجمه وقوته ، لذلك فهو يدعم قوته المحدودة بالقوة الطبيعية الموجودة فى العالم كالحرارة والبحار وسائر أنواع الطاقة ، وبقوة غيره من البشر وسائر المخلوقات الأخرى ، ولا يستطيع الإنسان ، حتى بعد أن غزا الفضاء ، ووصل إلى القمر ، أن يدّعى أن له قدرة غير محدودة ، فستظل قوته محدودة فى الكثير من المجالات . التى يمكن أن تخطر على فكره وتجيش فى صدره .

هذا هو أساس التفاؤل المسيحى والنظرة المتفائلة إلى العالم . فهذا الكون ليس تحرك طاقات عمياء وبلا هدف كما يقول الطبيعيون ، بل هذا الكون مجال للوصول إلى غايات وقيم معينة .

ولعلنا ندرك ذلك عندما نقارن المسيحية بمذهب الغنوسيين الذين اعتقدوا أن العالم وليد قوة شريرة فهؤلاء لهم العذر إذا تصوروا أن الماديات شر وغير صالحة . لكن المسيحية تؤمن بأن العالم خليقة إله صالح ، فلابد أن يكون صالحاً . وكل جزء من طبيعة الإنسان ، الجسد كما العقل كما الروح صالح . هذا يجعل من المستحيل أن ننسب الشر فى الإنسان إلى الجسد المادى ورغباته ، وهكذا ننظر إلى الإنسان نظرة مزدوجة .

إن جسد الإنسان أداةٌ لحياة الروح ، وهيكل للرب ، ويجب لهذا الاعتبار أن نكرم الجسد ونهتم به . وهكذا نجد أن لكل جانب من طبيعة الإنسان قيمة ، والإنسان يحيا حياته فى عالم صديق وليس فى عالم معاد له .

إن الإنسان كمخلوق يؤكد عدم كماله ، ومحدوديته فى وجوده وقدرته الجسدية والعقلية والخلقية ، وأنه يعتمد على الله ، وهذا الاعتقاد يشجع الإنسان على الثقة بالله وسط آلامه ولا ينسى أن لحياته قيمةً ومعنى فى هذا العالم .

٢ – الإنسان على صورة الله

الحقيقة الثانية فى عقيدة المسيحية فى الإنسان هى أن الإنسان ممتاز بين الخلائق . والتعبير الكتابى الذى يعبر عن هذا الإمتياز هو أن الله خلق الإنسان على صورته كشبهه وسلطه على كل الخليقة (تك ١ : ٢٧ و ٢٨) .

ويظهر أثر هذه الفكرة فى التفكير العبرى حيث يقول المرنم : « إذا أرى سماواتك عمل أصابعك ، القمر والنجوم التى كوّنتها ، فمن هو الإنسان حتى تذكره ، وابن آدم حتى تفتقده ، وتنقصه قليلاً عن الملائكة ، وبمجد وبهاء تكلله . تسلّطه على أعمال يديك . جعلت كلَّ شيء تحت قدميه » (مز ٨ : ٣ – ٦) .

فهو يقارن بين الإنسان وبين النجوم والسموات وعظمتها ، ويبين كيف أن الإنسان يلى الله مباشرة فى التسلطه على خليقته .

ما هو أساس هذه النظرة السامية إلى الإنسان ؟ إن الأساس ليس هو سمو طبيعة الإنسان ، بل **علاقته الخاصة بالله** الذى خلقه على صورته وبذلك تميّز الإنسان عن كل المخلوقات .

لصوت الله بالطاعة له ، فالإنسان فى علاقته بالله ، كشخص يخاطب آخر أو كما يسميها اللاهوتيون « أنا » مقابل « أنت » («Thou» «I») هذه الاستجابة تتضمن سماع صوت الله ، وفهمه ، ومحبته ، وطاعته ، وهكذا نرى أن العقل أو الفهم يدخل فى هذه الطبيعة ، لكنها أكثر من مجرد الفهم . ذلك لأن القدرة على الفهم وحدها يمكن أن تنحرف وتصير أداة للشر لا للخير إذا لم تصحبها **إرادة** مستعدة أن **تطيع** . لذلك فالتجاوب المطلوب هو **الطاعة** فى **المحبة** . عندما يتجاوب الإنسان هكذا مع الله ، يُظْهر بوضوح صورة الله فيه .

وسنرى فيما بعد ، أن الخطية تشوّه أو تفسد صورة الله فى الإنسان ، لكنها لا تنزعها منه ، إذ تظلّ القدرة على التجاوب موجودة فى الإنسان ، ويظلّ كائناً مسئولاً ، ولكنه لا يعبّر عن صورة الله بوضوح ، لأنه يكون متمركزاً فى ذاته وليس فى الله . لهذا ينبّر العهد الجديد على ضرر التغيرّ عن شكلنا لنكون متناسقين أو مشابهين صورة المسيح الذى هو صورة الله غير المنظور (كولوسى ١ : ١٥) فبالإيمان به والاتحاد معه كصورة الله تعود العلاقة الصحيحة بين الإنسان والله . وهذا يعنى **أن صورة الله الأدبية تظل كامنة فى الإنسان بصورة مشوشة بالرغم من خطيته ، لكنها تظهر بوضوح عندما يؤمن بالمسيح ويتشبه به .**

ولقد عبّر العبرانيون عن الجانب المتفتح لله فى الإنسان والذى من خلاله يعمل روح الله فى الإنسان بالتعبير « روح » ، واعتقدوا أن الله عندما يوحى إلى الأنبياء بكلمته ، يوجهها بروحه إلى أرواحهم . أما فى العهد الجديد فإن فاعلية روح الله تتعدى مجرد الأعمال الخارقة كالوحى إلى مظاهر الحياة المسيحية العادية كالمحبة والفرح والسلام وطول الأناة والوداعة والتعفف الخ ... ولأن العهد الجديد يركز على فاعلية روح الله فى حياة الإنسان ، فإننا لا نجد اشارات كثيرة إلى روح الإنسان فى العهد الجديد ، وعلى أى حال ، فإن روح الإنسان فى مفهوم العهد الجديد تختلف عن روح الإنسان فى مفهوم الفلسفة اليونانية ، ذلك لأن فلاسفة اليونان كانوا يتصورون أن روح الإنسان شيء منفصل عن الجسد ومعارض له . وقد تأثرت الكنيسة المسيحية فى تاريخها الأول بهذا الفكر ، وهذا ما شجع الناس على الزهد والتقشف والامتناع عن الزواج والجنس واحتقار العالم والماديات ، واعتبار أن رغبات الإنسان الحسيّة أو الجسدية ، تنتمى إلى عالم الحيوان ويجب قهرها ...

على أن هذه ليست الفكرة السائدة فى الكتاب المقدس ، فهو يؤكد وحدة شخصية الإنسان ، ولعل بعض تعبيرات العهد القديم تشير إلى ذلك عندما يستخدم بعض وظائف الروح وينسبها إلى بعض أعضاء الجسد مثل تفكير الإنسان فى قلبه . وعندما انكشف أمام اليهود الاعتقاد بحياة أخرى للأبرار فى المستقبل ، كان لهذه الحياة صورة قيامة الأجساد وليس

أما الرأى الكتابى عن المحبة فهى ليست أشواقاً لخير غير شخصى (أى فكرة الخير) ليملأ حاجة النفس ، بل هى تجاوب مع الله كخالق وفاد . وهكذا فهم أفلاطون الحياة الروحية وعبّر عنها بتعبيرات بشرية ، فاعتبر أن الحياة الروحية هى محاولة الإنسان أن يرفع نفسه فوق محدوديته بل محدودياته وبينها محدودية الزمن ، ليشترك فى الكائن الأزلى والخير المطلق . أما المعنى الكتابى للحياة الروحية ، فهو مركزّ فى الله ، فهى حياة المحبة والطاعة النابعة من محبة الله السابقة للإنسان .

ومن الممتع والمفيد أن نتأمل بشيء من التوضيح فكرة النشاط الروحى فى حياة الإنسان ، فإن مثل هذا التأمل يفتح أمامنا آفاقا رائعة لندرك مقدار روعة هذا النشاط الخلاق فى حياة الإنسان ، ومن خلال هذا التأمل نعرف الكثير عن القدرة الروحية التى أودعها الله فى الإنسان .

إن الإنسان عندما يسعى سعيا مستمراً نحو التكريس للحقيقة والخير فوق المحسوس ، فإن هذا يتضمن التكريس أو الولاء للقيم المطلقة (Absolute Values) . وهذا التعبير « القيم المطلقة » مفهوم وواضح عند دارسى الفلسفة . القيمة المطلقة هى القيمة أو الحقيقة التى لا تتعلق قيمتها بغيرها أو برغبة الإنسان أو شعوره ، ولكنها تتطلب من الإنسان الولاء والتكريس غير المشروط .

فمثلاً الحق أو الصدق قيمة مطلقة لأننا نريده مهما كانت الظروف ومهما كانت نتيجته . ويجب أن يكون الإنسان صادقاً حتى وإن كانت نتيجة الصدق مؤلمة ومُرّة وتتعارض مع رغباتنا ، لذلك نقول إن الحق قيمة مطلقة . أما القيمة النسبية فهى التى تتغير بتغير الظروف والأحوال ، فبتر إصبع شخص كوسيلة من وسائل التعذيب أو الانتقام شر ولا شك ، لكن بتر نفس الإصبع إذا كان مصابا بمرض يعرض الجسد كله للخطر ، يكون خيراً بلا منازع .

والحياة الأخلاقية قيمة مطلقة ، وذلك عندما نمارسها لا بسبب السعادة الشخصية ولا الجزاء الاجتماعى ، ولكن لأننا نعتقد أن ذلك هو الصواب . ولقد كانت شكوى الشيطان ضد أيوب – فى قصة أيوب الخالدة – إن محبة أيوب لله وتقواه ليست قيمة مطلقة بل نسبية ، وأن أيوب يتقى الله لأن الله أعطاه الثروة والأبناء والصحة ، ولكن أيوب أثبت بصبره وتماسكه عند التجربة أن ولاءه لله كان قيمة مطلقة ، فقد اتقى الرب رغم كل التجارب .

وليست المسيحية وحدها هى التى تنادى بالقيم المطلقة ، فإن الفكر الأخلاق الإنسانى ينادى أيضاً بها ، ولكن هناك اختلافا بين النظرة المسيحية إلى القيم المطلقة والنظرة الإنسانية فالنظرة الإنسانية تتصور هذه القيم مُثلاً عليا غير شخصية يطلب الإنسان الوصول إليها

ومسعى الإرادة نحو الخير تحكمه قواعد أخلاقية تختلف عن القواعد الطبيعية ، ذلك لأن القواعد الطبيعية تصف لنا ما هو كائن فينا بينما القواعد الأخلاقية توضح لنا ما ينبغي أن يكون فينا ، لا ما نحن عليه . ويمكننا أن ندرك كيف تختلف القوانين الطبيعية عن القوانين الأخلاقية ، عندما نرى أحياناً خلافاً وصراعاً بينهما ، وعندما يحدث هذا الصراع فإن الروح قد توقف الرغبات البيولوجية عند حدّها أو تقمعها أو تنكرها لكى تظهر القيم الروحية المتميزة عنها ، فمثلاً لا يخلو سلوك صالح من قمع لغريزة الجنس ، وأحياناً يضطر الإنسان إلى التضحية بالحياة نفسها وهى قمة الرغبة البيولوجية ، فى سبيل قيمة يراها أعظم وأهم كالإيمان أو الوطن مثلاً .

(٣) وسمو روح الإنسان على الطبيعة يتضمن أيضاً السمو **بالزمن** – ان بعض الحيوانات يمكنها أن تتعلم من اختبار الحاضر لفترة قليلة وإلى حد محدود (مثل تدريب القرد والقط الخ) ولكن الإنسان يستطيع أن يحتفظ فى ذاكرته بكنوز اختباراته الماضية يستعيدها من الذاكرة فتؤثر فى حياته ، بل إنه يستفيد من خبرات الأجداد المسجلّة فى سجلات وآثار ، ويستنتج من الآثار حقائق كثيرة يستفيد بها فى حياته . كما أن الإنسان يستطيع أن يستعرض اختبارات الماضى ، ويضع تخطيطاً للمستقبل ، وهذه الخطط تؤثر على حياته الحاضرة ، وربما تؤثر على حياة كثيرين فى حياته هو ، وبعد موته .

هذا التسامى بالزمن والإفادة من الماضى ، والتخطيط للمستقبل يغيّر من حاضر الإنسان ، فهو لا يختبر الحاضر كوحدة مستقلة من الزمن discrete بل كنقطة انتقال فى عملية اختبار مستمرة . وهكذا نجد الماضى والحاضر والمستقبل ترتبط معاً فى حياة الإنسان ، فمع أن الإنسان مخلوق زمنى ، ومعرّض للتغير والزوال – وهى صفات كل زمّنى وسيواجه الموت ، لكنه يستطيع أن يُثرِى وجوده الزمنى بمعنى أوسع من الزمن ، وهكذا يربط نفسه بالأبدية .

٣ – الإنسان كفرد فى مجتمع

مع أن الكتاب المقدس يظهر لنا « الروح » أساساً كقدرة الإنسان على التجاوب مع الله ، لكنه لا يتجاهل أن الإنسان مخلوق[٣] . وبإعتبار الإنسان أحد المخلوقات فإنه ينتمى إلى الطبيعة ، حتى إن كانت شخصيته الروحية تسمو به وبالطبيعة وبالزمن .

ويقول اللاهوتى الشهير رينهولد نيبور : « إن الإنسان يقف فى مفترق الطرق بين الطبيعة (Nature) والروح أو بين الطبيعة والروحانية وهكذا فإنه متورط فى كل من الحرية

وفى المسيحية لا توجد استقلالية عن الآخرين لأن الإنسان مخلوق له علاقة مع الغير . وعند خلق الإنسان يقول الكتاب « ذكراً وأنثى خلقهم » بصيغة الجمع لا المثنى ليؤكد أن الله يريد أن يكون الإنسان جزءاً من مجتمع . ومن الناحية العملية الواقعية ، الإنسان محدود فى قدراته ويعتمد على الغير فى تحقيق حاجاته ولا يستطيع أن يحيا دون مجتمع .

وأساس المجتمع عادة علاقة القرابة والاتفاق فى أسلوب معين للثقافة والحياة . ففى المدن اليونانية القديمة (وكانت كل مدينة أشبه بدولة قائمة بذاتها مثل أثينا وأسبرطة وغيرهما) كانت العلاقات الطبيعية (القرابة) تقوى بولاء الجميع للنظام الاجتماعى وللقيم الحضارية للجماعة . إن مثل هذه المجتمعات تعتبر مجتمعات **مغلقة** لأن مسئولية الفرد فيها محدودة بأعضاء الجماعة التى ينتمى اليها ... لكن الإنسان يستطيع أن يخلق مجتمعا ليس مؤسساً على علاقات قرابة طبيعية أو وحدة ثقافية ، بل على أسس روحية . فإنه مدعو للدخول إلى مجتمع يتكون من جميع الذين قبلوا ملكوت الله . وأساس العضوية فى هذا المجتمع هو الإيمان ، ورباط الوحدة فى هذا المجتمع هو المحبة – محبة القريب (ومعنى القريب هنا معروف ووضحه السيد المسيح فى مثل السامرى الصالح) .

وبينما تعتمد المجتمعات المغلقة على علاقة القرابة أو وحدة الثقافة أو الحضارة أو القيم المشتركة ليرتبط أفراد هذه المجتمعات معاً ، فإن المحبة ضرورية لتخلق مجتمعا عالمياً أى يشمل العالم كله . وكلما اتسع هذا المجتمع العالمى ، فإنه سيحد من ولاء الإنسان للمجتمعات المغلقة التى هو عضو فيها ويمنع الإنسان من أن ينظر إلى هذه المجتمعات المغلقة كشىء مطلق يتطلب الولاء الكامل غير المشروط ...

وهكذا ترفع عقيدة المسيحية من قيمة الفرد ، وترفض أن يبتلعه أى مجتمع ما . وفى نفس الوقت تصّر المسيحية ، على أن يكون الإنسان مسئولاً عن غيره من الناس ، وأن يجاهد نحو تكوين مجتمع عالمى مؤسس على المحبة للجميع ، وأن يحد من ولائه للمجتمعات المحدودة المغلقة ، لكى يتفتح قلب الإنسان للإنسانية كلها ، فتظهر فى حياة الإنسان المحبة المسيحية بمعناها الشامل فى محبة الله كما تظهر فى محبة الغير .

الفصل الثانى

الإنســــان خاطــىء

١ - طبيعة الإنسان المزدوجة

عرفنا مما سبق أن الإنسان - حسب الفكر الكتابى - مخلوق محدود فى طبيعته ، لكنه فى نفس الوقت مخلوق روحى ممتاز عن سائر الخلائق لأنه خُلِقَ على صورة الله . وقد أوضحنا أن هذه العقيدة تشتمل على جانب من النظرة المثالية إلى الإنسان وجانب من النظرة الطبيعية ، لكنها تتجنب الانحطاط الذى أوصلت النظرة الطبيعية الإنسان اليه ، والغرور الذى أوصلت النظريات المثالية الإنسان اليه .

وربما كان الفيلسوف الحديث (باسكال) Pascal من أكثر الناس الذين عبّروا عن النظرة المسيحية الثاقبة إلى هذه الطبيعة المزدوجة للإنسان . ولقد كان باسكال عالماً ورياضياً بارعاً ، فاحترم العقل ، ورفض أسلوب الشك الذى أوجده الفيلسوف مونتانى Montaigne وأكد قدرة العقل والحواس على معرفة العالم الطبيعى ، لكنه فى نفس الوقت رأى خطورة التمادى فى الاعتماد على العقل فى إدراك الأمور الميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة) مثل جوهر المادة ، العقل ، الله الخ .. ورأى أن مثل هذه المحاولات تشجع الغرور العقلى الذى لا يتناسب مع الإنسان

ولقد صادفت فكرة الخطية والفداء وجهات نظر متباينة خلال عصور تاريخ الفكر المسيحى ، بعضها غالى فى تثبيتها وقال إن الإنسان ورث الخطية من أبوينا الأولين آدم وحواء ، وبذلك ألغيت وانمحت من الإنسان صورة الله تماما ، وأصبح كل إنسان يولد وهو يحمل عبء الخطية الثقيل . وأصبح الإنسان فى حالة ، « عجز كلّى » بلا صلاح على الإطلاق ، ولا امكانية لأن يخرج أى عمل صالح من الإنسان ...

هذه المبالغة فى وصم الإنسان بالخطية ، صادفت اتجاهاً مغايراً فى عهد احياء العلوم فى مستهل العصر الحديث ، فابتدأ بعض المفكرين يصرّون على كرامة الإنسان ويقللون من شأن طبيعته الخاطئة . ولكن لم يستطع هؤلاء أن ينكروا الشرور الواقعية التى تأتى من داخل الإنسان وخارجه ، لكنهم عزوها إلى قلة إدراكه ، أو إلى فساد المؤسسات والنظم الاجتماعية ، أو إلى دوافعه الحيوانية ، بدلاً من أن يعترفوا بأن نفس الإنسان فيها شر جذرى . وقد حاول هؤلاء الدعوة إلى اصلاح المجتمع عن طريق الخدمة الاجتماعية ونشر العدالة ورفع المظالم الاجتماعية ، وتثقيف وتدريب وتهذيب الأجيال الناشئة . وهكذا حاول هؤلاء تحويل الإنجيل إلى شيء يختلف تمام الاختلاف عن الفداء الإلهى فى المسيح . والبعض هجروا المسيحية تماماً ، وآخرون استبعدوا منها كل نزعة تشاؤمية عن الإنسان الساقط ، وأصبح الإنجيل بالنسبة لكثيرين مجرد تعاليم عن أبوة الله ، وقيمة النفس الإنسانية ، وحياة المحبة ... وهكذا ابتدأ الناس يتصرفون كمن أسكرتهم نشوة التقدم العلمى والانجازات الإنسانية ، فصاروا يحلمون بعالم سعيد فيه كمال السعادة للإنسان ، وابتعدوا عن عقيدة المسيحية فى خطية الإنسان وحاجته إلى الفداء .

وطبيعى أن يؤكد الواقع صحة وجهة النظر المسيحية فى فساد طبيعة الإنسان ، إلا أن الإنسان الخاطىء لم يفقد صورة الله نهائياً – كما يقول المتطرفون من المحافظين – ولكن هذه الصورة تشوهت ، مع بقاء القدرة على التجاوب مع الله كامنة فى الإنسان ، وإن كانت الخطية قد ألقت عليها ظلالها الكثيفة . لكننا لا نستطيع أن ننكر عمومية الخطية .

٢ – عمومية الخطية :

فى حديث الناس العادى ، ونظرتهم الطبيعية إلى البشر ، يصفون إنساناً ما بأنه « صالح » أو « طيب » ، وآخر بأنه « شرير » ... وعادة يقارن الناس بين إنسان وآخر ، فيقولون « فلان أفضل من فلان » « وزيد أشرّ من عمرو » . وعادةً يرضى الناس عن نفوسهم وعن ذويهم باقناع نفوسهم بأنهم أفضل من غيرهم ... هذا الأسلوب من المقارنة بين الناس ، هو

لديهم الشريعة – شريعة الله الكاملة ، التى تكشف أعماق النفس الإنسانية –استطاعوا أن يدركوا بالشريعة أن الرغبة خطية ، حتى لو لم تتحول إلى عمل ، وفى مقياس الله يجب أن تكون الرغبة صالحة كالأعمال تماماً إذا أردنا أن نوفى مطاليب الإله البار ... وبذلك نكتشف أن الشهوة علامة واضحة لمحبة الذات ، مثل القتل والسرقة تماما ، رغم أنه لا يُعبَّر عنها بأسلوب خارجىّ . لذلك فالمفروض أن من لديه الشريعة يكتشف أنه خاطىء أكثر ممن ليست لديه الشريعة ...

ولنأخذ جانباً إيجابياً ، فنتأمل فى الوصية القائلة : « تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك » (مرقس ١٢ : ٣٠) .

إن هذه الوصية تتطلب ولاءً كاملاً وتكريساً تاماً يندر أن نجده ، فإن أغلب الناس يرضون بمحبة الله من نصف القلب ، وحتى لو قالوا إنهم يحبونه من كل القلب ، فإن أفعالهم فى مختلف الظروف ، تكشف هبوطهم الكثير عن هذا المستوى ... وكلما ارتقى الإنسان فى إدراكه لمطاليب الله ، كلما أحس ببعده الكبير عن المقياس المطلوب ، لذلك فالشخص الذى نعتبره قديساً ، إذا كان قديساً بحق – له علاقة قوية بالله وشركة متينة معه – يكون أكثر إدراكاً لعجزة وقصوره عن تطبيق وصية المحبة الكاملة والولاء المطلق ، من الشخص العادى الذى لم يتعمق فى معرفة الله . ومع أنه فى نظر الناس أفضل كثيراً من غيره ، لكنه هو يرى نفسه خاطئاً أمام الله . ذلك لأنه إذا كان مقياس الخير والصلاح هو محبة الله الكاملة ، فمن يجرؤ أن يدعىّ أنه ليس خاطئاً ؟

لذلك علينا أن نكفّ عن عمل مقارنات مع غيرنا من الناس ، سواء علنا أم سراً فى نفوسنا ، ولننظر إلى نفوسنا فى ضوء مطاليب الله الكاملة ، لا فى ضوء الصلاح التقليدى النسبى الذى اصطلح عليه الناس ، وفى هذه الحالة سندرك صدق كلام السيد المسيح : « ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله » (مت ١٩ : ١٧ ، لو ١٨ : ١٩) .

٣ – طبيعة الخطية الجذرية :

الخطية متأصلة فى الإنسان فهى تؤثر فى شخصية الإنسان من أصولها أو أعماقها . وليست المشكلة مجرد أعمال شريرة أو تعد على القانون الأخلاقى أو حتى عادات شريرة ، فلو كان الأمر كذلك لأمكن للناس معالجتها بطريقة أو أخرى ، فكل إنسان يستطيع أن يمتنع عن عمل ما بشىء من التدريب والإرادة ، وحتى العادات المتأصلة يمكن اقتلاعها ... ولو كانت الخطية كسراً عارضاً لناموس الأخلاق ، لأمكن التغلب عليها .

والدليل على أن الخطية متأصلة فى الإنسان أنها تجعل الذات تنقسم على نفسها ، فيكون فى الذات الإنسانية الواحدة جانب من الإرادة تصبو إلى الحق والخير ، وجانب آخر يبدو كقوة معادية فى داخل الإنسان تسيطر عليها الخطية . وقد صوّر الرسول بولس فى رسالة رومية هذا الانقسام والصراع الذى ينتج عن تأصل الخطية فى نفس الإنسان بقوله :

« لأنى لست أعرف ما أنا أفعله ، إذ لست أفعل ما أريده بل ما أبغضه فإياه أفعل ... فالآن لست بعد أفعل ذلك أنا بل الخطية الساكنة فىَّ ... لأن الإرادة حاضرة عندى وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد ... » (**رو ٧ : ١٥ و ١٧ و ١٨**) .

إن بولس يكتب هذه العبارات من وجهة نظر إرادته التى تتطلع إلى الحق والخير والصلاح .. هذا ما يجعل الخطية تبدو شيئاً غريباً « ما أبغضه فإياه أفعل » ... والمأساة هى أن « ما أبغضه » من وجهة نظر الإرادة الخيّرة ، هو « ما أريده » من جهة الإرادة الأخرى التى تطلب الخطية ... وليس معنى هذا أن يكون للإنسان إرادتان ، ولكن كما قال القديس أوغسطينوس : « إنها إرادة واحدة ، لكنها بسبب الخطية المتأصلة فى الإنسان .، تطلب الخير بجزء من قواها ، وفى نفس الوقت تطلب الأقل من الخير بالجزء الآخر » .

إن الخطية جذرية لأنها تمنع النفس من أن تعمل ما تراه فعلاً بأنه أفضل ، لأنها تفسد وظائف الذات **وتمسخ** القلب فلا يحب الخير الأسمى أو على الأقل يحبه حباً منقسماً غير كامل ، وينشغل بقيم أخرى زائفة أو سريعة الزوال .

كذلك تسيطر الخطية على **الخيال والتصور** فلا تتصور النفس الحقيقة المطلقة والخير الأسمى . وتمتلىء النفس بتصورات حسّية أو لذات وقتية .

والعقل نفسه لا ينشغل بسبب الخطية بالأمور الروحية بل ينشغل بالأمور الوقتية المحدودة بالزمان والمكان ، ويصبح العقل وسيلة يبرر بها الإنسان نفسه ويتلمس الحجج التى تبرره إذ يحاول إرضاء رغباته الذاتية الشخصية أو الرغبات الأنانية للجماعة التى ينتمى إليها[٧] .

وحتى الرغبات والشهوات الطبيعية تفسدها الخطية ، فتجعل الرغبة الطبيعية فى الحياة ، تتحول إلى الرغبة فى السلطة والسيادة ؛ والرغبة فى استمرار النوع الظاهرة فى الدافع الجنسى ، تتحول إلى الرغبة فى استغلال الآخرين للمتعة .

هذه الطبيعة الجذرية للخطية هى التى أوحت إلى اللاهوتيين القدماء بالتعبير : « عجز الإنسان الكلى » ، لكنه وإن كان عجزاً فى الفعل ، لكنه ليس عجزاً فى الامكانية ، أى أن صورة الله لم تنمح من الإنسان لكنها **طمست** وشُوِّهت[٨] . ويشبه اللاهوتى رينهولد ينبور

إذ صُنِع على صورة الله ، فإن غايته التى خُلِق لها هى أن يكون ابنا لله متجاوبا مع محبته وخادما لمشيئته . لذلك فالتحوّل بعيداً عن الله إلى الذات ، هو إنكارٌ لمسئولية الإنسان أمام الله واعتماده عليه . وهكذا يتصرف الإنسان معتمداً على نفسه فقط ، ومسئولاً أمام نفسه فقط ، وهكذا يجعل من نفسه (عاصيا) وثائراً ضد ربّه ، ويجعل من نفسه سيداً لنفسه ... هذا العمل ليس مجرد جحود وإنكار لمحبة الله ، ولكنه إنكار لطبيعة الإنسان نفسه . وهذا يذكرنا – ولا شك – بما جاء فى سفر التكوين عن السقوط ، فعندما أراد الإنسان أن يتخلص من مسئوليته أمام الله ، وأراد أن يكون كالله ، سَقط وفسدت طبيعته .

٥ – الدوافع إلى الخطية :

إننا نجد التساؤل عن سبب الخطية يحتل مكانه فى تفكير البشر على مدى تاريخ الفكر الإنسانى ، وطبيعى أن يتساءل الإنسان عن سبب هذه الحالة المأسوية من اغتراب الإنسان عن الله وعن محبته ، ويريد أن يعرف مصدر الخطية . والحقيقة أننا إذا فهمنا لفظ « سبب » بالمعنى المتداول وهو أن شيئاً ما أو حادثاً ما يتسبب بالضرورة فى وقوع حادث آخر ، فإننا لا نجد فى الواقع سبباً للخطية بهذا المعنى ، لأن الخطية لم تأت بالضرورة نتيجة حتمية لشىء ما ، فإنها كما أوضحنا « حالة فى الذات » – ولو أردنا أن نتتبع سبب هذه الحالة وننسبها إلى عامل معين **خارج** الذات الإنسانية ، فكأننا بذلك ننكر مسئولية الإنسان عن الخطية ... فلو قلنا على سبيل المثال إن الشيطان بتجربته وغوايته للإنسان هو سبب الخطية ، فإن هذا القول يتضمن أن إرادة الإنسان لم تكن لها الحرية والقدرة على أن تقاوم هذه التجربة وترفضها . وانتفاء الحرية معناه انتفاء أو ضياع المبدأ الأخلاقى من أساسه[١٠] ...

لذلك اتجه كثيرون من المفكرين إلى محاولة تعليل الخطية بسبب **داخل** الذات الإنسانية لا خارجها ... وفى هذا المجال كثر الجدل بين الباحثين ، إلى أى جانب من الذات الإنسانية يمكن أن ننسب حالة الخطية ، هل هو العقل المفترض أنه يتحكم فى أفعال الإنسان ؟ أم هى الإرادة التى تقوم بتحقيق العمل نفسه ؟ أم هو الوجدان أو الرغبات والشهوات التى تدفع الإنسان نحو عمل معيّن ؟ لسنا نريد أن نحمل القارىء إلى متاهات هذا الجدل الشاسعة ، ولكننا نذكر فقط أن القديس توما الأكوينى نسب الخطية إلى الإرادة فهى التى تحقق الفعل الخاطىء ، والعقل يشاركها فى ذلك بعدم ضبطه لها ، فالإرادة والعقل هما السبب المباشر ، أما الرغبة فهى السبب البعيد أو المختفى وراء هذين – أما القديس أوغسطينوس فيرى أنه ما دامت الخطية حالةً فى النفس ، تنتج عنها الأفعال الشريرة ، فإنها فى الأصل عمل من أعمال الإرادة الحرّة ، فالذات الإنسانية إذ رفضت الولاء لله باعتباره الخير الأسمى واتجهت نحو نفسها ، أصبحت فى حالة الخطية .

حد ما أن يقاوم هذه الشرور منفرداً أو مع جماعة مؤمنة مثله بضرورة هذا السمّو .

إن حرية الفرد ليست كاملة ، بل ان هناك عوامل مختلفة تحدُّها ، وفى بعض الأحيان قد لا تكون هناك حرية للفرد إلا أن يموت مفضلاً الموت على الخضوع للنظم الفاسدة التى تسود الجماعة ... لكننا يجب ألا ننسى أن هذه النظم سادت واستقرت فى الجماعة نتيجة للاختيار الحر لأفراد معينين فى تاريخ هذه الجماعة فى الماضى ، وعلى هذا الأساس فإن الإنسان مسئول عنها . وقد تتخذ بعض الحكومات – مثلاً – قرارات من شأنها أن تسبب الشقاء لمواطنيها وتجرّبهم بأنواع من الخطايا كالحروب الظالمة ، وتنمية الروح العدوانية أو المتعصبة أو المتعالية ، وهنا يقف الفرد حائراً إذ يتصور نفسه غير مسئول عن السياسة العامة فى بلاده ، ولكن هذا لا يعفيه من المسئولية لأنه ينبغى ان يكافح ويجاهد ويقوم بدوره فى المجتمع ، فربما استطاع أن يساعد فى تقويم النظام ... وهكذا نرى أن العلاقة بين المسئولية الفردية والعوامل الاجتماعية أمر معقد وأعمق من تصورنا البسيط .

(٣) وثالث نوع من التجارب تأتى **من القلق فى المواقف التى يشعر فيها الإنسان بعدم الأمان .**

يقول اللاهوتى السويسرى إميل برونر : « كل خطية إنسانية بها عنصر من الضعف فهى مشوبة بقلق الإنسان من أجل حياته ، وخوفه من أن يفقد شيئاً بطاعته لله ... ومن ثم فهى نقص فى الثقة ، وخوف من المخاطرة والاتكال على الله وحده . إنها قلق الإنسان على نفسه ، فهى ليست مجرد ثورة ضد الله ، لكنها موقف يواجه الإنسان ويجعله تائهاً حائراً يخاف أن يتخطى هوّة الحياة متكلا على الله وحده »[١٣] .

وقد توسع العلّامة المعاصر رينهولد نيبور فى توضيح طبيعة ومصدر هذا القلق ، فقال إن الإنسان بإعتباره مخلوقاً ينتمى إلى الطبيعة ويخضع لضعفها ومخاطرها باعتباره كائناً محدوداً ؛ لكنه فى نفس الوقت كائن روحى ، يستطيع أن يتسامى بالطبيعة ويستطيع أن يعقل ويتصور القوة الغير المحدودة التى يمكن أن تتغلب على الضعف ... ويتصور المعرفة الكاملة التى يمكن أن تحل كل مشكلاته ، ويعقل أو يدرك أن هناك خيراً مطلقاً يمكن أن يرفعه فوق عيوبه الأخلاقية ...

فإذا شعر بسبب محدوديته بعدم الأمان والقلق ، فإن الخطية تأتيه عندما يتصور أنه يستطيع بنفسه أن يحصل على القوة الفائقة ، وأن يعرف الحق المطلق ، أو أنه حصل على الصلاح التام ... أو بمعنى آخر عندما يحاول أن يتغلب على قلقه بالتظاهر بأنه

وهكذا نرى أن الدوافع للخطية ترتبط معاً فى أغلب الأحيان ، ومن السذاجة أو الخطأ أن ننظر إليها نظرة بسيطة .

٦ - تفاوت قدر الخطايا :

هل كل الخطايا شريرة بنفس المقدار ، أم أن هناك خطايا أشر من غيرها ؟ لقد كان هذا السؤال مثار جدل كبير عند اللاهوتيين فى مختلف العصور . وقد قال البعض إن هناك تفاوتا فى عقاب بعض الخطايا عن غيرها ، واستدلوا على ذلك ببعض أقوال السيد المسيح ، فمن يعلم أكثر تكون خطيته أشر ، حسب القول :

« وأما ذلك العبد الذى يعلم إرادة سيّده ولا يستعد ولا يفعل بحسب إرادته فيُضرَب كثيراً . ولكن الذى لا يعلم ويفعل ما يستحق ضربات ، يضرب قليلا . فكل من أُعطى كثيراً يُطلَب منه كثير ، ومن يودعونه كثيراً يطالبونه بأكثر » (لو ١٢ : ٤٧ و ٤٨) .

كذلك قول السيد لكورزين وبيت صيدا وكفرناحوم إنه ستكون لسدوم وعمورة حالة أكثر احتمالا يوم الدين مما لها (متى ١١ : ٢١ و ٢٤) .

ربما كان هذا الرأى مشجعا لبعض الناس على التقدم نحو الكمال والجهاد ضد الخطية وعدم الوقوع فى الفشل الكامل بتصور أنه مهما عمل الإنسان وجاهد فهو خاطىء بنفس الدرجة . على أن كثيرين من اللاهوتيين عارضوا هذه الفكرة لأنها تتنافى مع الفكر السائد فى الكتاب المقدس الذى يؤكد أن جميع الناس أمام الله خطاة ، لأنهم مهما تحسنوا عن غيرهم ، فهم لا يستطيعون أن يوفوا مطاليب الله الكاملة من الإنسان . ويؤكد الكتاب أن الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله (رو ٣ : ٢٢ و ٢٣) وأن « من حفظ كل الناموس وإنما عَثرَ فى واحدة فقد صار مجرما فى الكل » (يع ٢ : ١٠) .

هذا فضلاً عن أن وضع مستويات مختلفة للخطايا يشجع البر الذاتى والرضا بالأقلّ ، إذ يقول الإنسان إنه إذا لم يستطع أن يمتنع عن الخطايا البسيطة فى جرمها وقدرها ، فليس أقل من الامتناع عن الخطايا الكبيرة ، وبذلك يقارن نفسه بغيره ، فيرى أنه أفضل من غيره ، وهذا فى حد ذاته تصوّر شرير ، وخطية كبرى - إذا أمكن استخدام هذه الصفة لوصف هذه الخطية ...

لا ننكر أن هناك بعض الخطايا التى لها نتائج أفظع من غيرها ، لكننا عادة ننظر إلى نتائج الخطايا التى تحدثها خارج الإنسان ذاته ، ولو نظرنا إلى آثار الخطايا داخل نفس الإنسان

لا يقاس من حرمان أحد أفراد الأسرة من حقوقه المدنية لاتهامه مثلا بالرشوة أو الاختلاس . وهكذا نرى أن الناس ينظرون إلى الخطايا ذات الدافع الحسى بإعتبارها أشر من الخطايا الناتجة عن الطمع أو الكبرياء . ولسنا فى مجال تحليل هذه الظاهرة ، إلا أننا نريد أن نقول إن مبادىء الأخلاق المسيحية - متبعة فى ذلك شخص السيد المسيح - تعتبر الكبرياء والخطايا الصادرة عنها من أشر الخطايا ، ولكنها لا تخفف من شر الخطايا الأخرى ، ولا تتهاون معها . وإنما تنظر إلى الخطايا النابعة عن الكبرياء بأنها ذات أثر أسوأ على شخصية الفرد ، - وفى المدى البعيد - على حياة المجتمع بصفة عامة .

ونستطيع أن نجد بعض الأسباب التى تبرر هذا التقييم :

أ - إن الخطايا الروحية تعمى الإنسان عن واقعه ، والكبرياء تقف عائقاً دون تواضع الإنسان ، وبذلك تعطل طريق توبته ، ذلك لأن أساس التوبة هو التواضع الحقيقى أمام الله .

ب - إن الكبرياء إذ تجعل الإنسان يحس بتفوقه ، تدفعه إلى احتقار الآخرين ودينونتهم ، وبذلك تعمى الإنسان عن أن يرى نفسه على حقيقتها .

جـ - إن الكبرياء أكثر الخطايا إيذاء للغير بشكل أكثر شيوعاً واتساعاً . وربما كانت الخطايا الجسدية تضر بالإنسان نفسه وبالدائرة الضيّقة المحيطة به ، كخطية السكر والجنس ... ومع أن نتائج هذه الخطايا فظيعة ، لكنها ليست بأفظع من نتائج الكبرياء ، لأن الكبرياء تدفع إلى القسوة والظلم والاستبداد بالغير ، وهذه الخطايا تتعدى آثارها الدائرة الضيّقة وتؤثر فى المجتمع بشكل عام وتسبب المآسى للآخرين . فإذا كان حاكم مثلا منحرفاً فى حياته الشخصية فإن آثار هذا الانحراف تكون أقل مما لو كان مستبداً متكبراً متجبراً ، لأنه فى تلك الحالة يتمسك بالسلطة ويدافع عنها بشكل يجعله يستهين بكل المبادىء ويدوس الآخرين ، ويشجع التعذيب والقتل والظلم والكذب وشهادة الزور والاضطهاد وغير ذلك من الشرور .

د - وهناك نوع آخر من الكبرياء هو الكبرياء الفكرية أو العقلية وهذا النوع أكثر خبثا وخفاءً من أنواع الكبرياء الأخرى ، لأنه يقود إلى استبداد الإنسان برأيه ، ويجعله يحوّل الحقائق الجزئية التى يعتقدها ، إلى حقائق مطلقة لا تقبل المناقشة ، وينتج عن هذا النوع من الكبرياء كبرياء أخلاقية وروحية عندما يتصور

أوغسطينوس ، فقالوا إن آدم قبل السقوط كانت لديه القدرة « أن يخطىء أو لا يخطىء » ، إلا أنه بعد السقوط صارت له ولنسله « القدرة أن يخطىء » ، وفقدوا القدرة على عدم الوقوع فى الخطية[١٥] .

ويقول العلّامة المعاصر رينهولد نيبور ، إن إرادة الإنسان أصبحت تميل إلى الشر الأمر الذى يجعل وقوع الإنسان فى الخطية أمراً « لا يمكن تجنّبه » ، لكن نيبور يرفض أن يستخدم كلمة « حتمى » لأن ذلك يتضمن فقدان الحرية وبالتالى عدم المسئولية .

ويفسر نيبور هذه الحقيقة بالقول إنه مادامت أى خطية فعلية تفترض: وجود « حالة الخطية » أولاً ، فإن « حالة الخطية » هذه إنما هى ميل فى الإرادة للخضوع للتجربة والوقوع فى الخطايا الفعلية . ويقول نيبور إن التعبير « الفساد الموروث » الذى توصف به « الخطية الأصلية » فى علم اللاهوت إنما هو تعبير رمزى لا يشير إلى انتقال الخطية بقوانين الوراثة الطبيعية التى يدرسها العلماء فى « علم الوراثة » ، ولكنه يشير إلى أنه منذ بداية التاريخ الإنسانى ، والجنس البشرى يميل إلى الخطية ، وهكذا تصير الخطايا الفعلية أمراً لا يمكن للناس تجنبه ، ومع ذلك فالإنسان مسئول عن أفعاله ، رغم ما يبدو فى هذا الفكر من تناقض ظاهرى ، يقول عنه إنه لا يحتاج إلى مزيد من الشرح ، لأنه أمر واقع[١٦] .

ولو أننا تعمقنا فى النظر إلى هذين الاتجاهين لوجدنا أن أصحاب النظريات المثالية المتحررة أو « الليبراليين » تجاهلوا أو قللّوا من شأن تضامن الأجيال الماضية مع الحاضرة وأثر ذلك فى اختيارات وسلوك الأجيال الحاضرة . ونحن فى الواقع لا نستطيع أن نعزل الفرد فى الحاضر عن ما توارثه من عادات وتقاليد من الأجيال السابقة . ولذلك فإن مذهب « الخطية الأصلية » يعتبر أكثر واقعية لأنه يعطى الأهمية الكافية لتضامن الفرد مع الإنسانية كلها فى المسئولية عن الخطية .

إن ما يقوله « الليبراليون » من أن الإرادة الإنسانية حرَة فى أى لحظة أن تختار بين الخير والشر ، لا يطابق الواقع ؛ ذلك لأن مجرد الاختيار محكوم بما درج عليه العقل من التمييز بين الخير والشر ، وهذا التمييز ناتج عن التراث الذى توارثه الإنسان ، لذلك فإن حرية الإرادة فى هذا المجال محدودة .

ويقول الأسقف وليم تمبل[١٧] إننا أحرار فعلاً ، لكن حريتنا هذه محكومة بأفكارنا الشخصية التى تعاوننا على إتخاذ القرار حسب ما نراه من « خير ظاهر » لنا ، لكن فكرتنا عن هذا « الخير » مشوّهة بسبب الأنانية المستقرة فينا ، وهكذا تكون إرادتنا فى الواقع أو حريتنا

الفصل الثالث

الإنسان وحياته المفتداه أو الحياة المسيحية

أوضحنا قبلا أن هناك تناقضا فى الإنسان : فهو قد خُلِق على صورة الله يمتلك القدرة على محبة الله والقريب ، ومع ذلك فقد سقط فى خطية محبة ذاته . ومع أنه ليس بالضرورة محكوماً عليه بأن يخطىء فى كل فعل يفعله ، لكنه مهدد باليأس بسبب فشله فى أن يتغلب على خطيته وبسبب انفصاله أو اغترابه عن الله وعن القريب .

كيف يستطيع هذا الإنسان أن يطيع وصية الله التى هى وصية المسيح أيضاً أن يحب الله من كل قلبه ومن كل نفسه ومن كل فكره ومن كل قدرته وأن يحب قريبه مثل نفسه .

إن المسيحية تقول لنا إن هذا ممكن فقط بمعونة نعمة الله الذى يغفر خطايا الإنسان وينعم عليه بقوة ليست له . ومما يؤكد إيمان البشر بهذه النعمة أن الله افتداهم بالمسيح ومحبته المضحية ، ففى موت المسيح على الصليب نرى محبة عميقة مكلفّة قد أعلنها الله للناس : « الله بيَّن محبته لنا إذ ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا » (رو ٥ : ٨) .

لكن هذا ليس كلّ شيء ، لأن عمل المسيح لم يقف عند هذا الحد ، بل عمله مستمر فى حياة المسيحيين **هنا والآن** . لقد قام المسيح من بين الأموات وظهر للتلاميذ ، وفى يوم

المخاطرة أو ما يمكن أن نسميه قفزة فكرية (Leap) ، إذ ليست هناك وسيلة محسوسة لتأكيد وجود اللهَ ، أو صلاحه للبشر ، أو محبته الفادية فى المسيح . لكن الإيمان ليس قفزة فى الظلام اعتباطاً دون منطق أو فكر سليم ، إذ هو مؤسس على ما عمله الله فى المسيح . إننى أستطيع أن أثق بالله لأنه بيَّن محبته لى فى تجسد المسيح وموته . وأستطيع أن أثق فى رحمته لأنه أظهر استعداده أن يغفر لخطاة مثلى . والإيمان هو **عطية** من الله ، فالإنسان المكتفى بذاته ، المتمركز فى ذاته ، لا يمكنه أن يثق بالله إلا إذا عملت فيه نعمة الله . فلا يمكن الوصول إلى الإيمان إلا بمعونة الله ، فخطوة الإيمان التى تضع الإنسان على بداية الطريق إلى الخلاص ، لا يمكن أن يصل اليها الإنسان من نفسه ، ولكنها تظهر كنوع من التجاوب لما عمله الله فى المسيح ، بعمل الروح القدس فى الإنسان ليتبينه ويراه . إلا أن الإيمان عمل إرادى يمكن للإنسان أن يقبله أو يرفضه – فإذا قَبِل الإنسان هذا العمل فإنه ينال الغفران والمصالحة مع الله فتعود العلاقة مرة ثانية بين الإنسان والله .

و لأن الإنسان يحتاج إلى الإيمان ليختبر الغفران والمصالحة ، لذلك كان الإيمان نقطة البداية فى الحياة المسيحية ، واستخدم اللاهوتيون التعبير المشهور « التبرير بالإيمان » – ومعنى هذه العقيدة – التى شرحها الرسول بولس وأعاد لوثر اكتشافها – لا يمكن فهمه فهما كاملاً إلا إذا فكر الإنسان فيما تقرره وما تنفيه – فهى تنفى تبرير الإنسان بأعماله وبفضائله التى يعملها طاعةً للناموس . أى أنه لا يستطيع أن ينال الخلاص كأجرة له عن برّ الذى اقتناه بالأعمال الصالحة .

ومن الجانب الايجابى فهى تقرر أن الإنسان اغترب عن الله وفقد الرجاء فى المصالحة مع الله ، ولكن الله اتخذ جانب المبادأة أو المبادرة ليحطم الحاجز – حاجز الخطية – وليعيد الإنسان مرة ثانية إليه فقد كان « الله فى المسيح مصالحا العالم لنفسه » – هذا الغفران تخطى كل ما كان يتوقعه الإنسان بمقياس العدالة ، لذلك لا يمكن تفسيره إلا بأنه من فيض محبة الله التلقائية المنعمة على البشر دون استحقاق[١٨] . لا يعتبر هذا الأمر تساهلاً مع طبيعة الله العادلة لأن الكتاب بيَّن أن العدل قد تم وتنفذ فى موت المسيح على الصليب .

ومن الضرورى التركيز على هذه النقطة لأن كثيرين يتصورون أن غفران الله يتم بمجرد رحمته وحبّه للإنسان ، وهذا يغفل جانبا هاماً فى الأخلاق المسيحية وهو عدل الله ، فالغفران الذى قدّمه الله كان غفرانا مكلّفاً جداً ... ولأجل هذا ينبغى أن يدرك كل مسيحى بأن الغفران المكلّف هذا يقتضى عدم التساهل مع الخطية بل يستلزم حياة الجهاد مدى الحياة ضد الخطية .

ولعلنا نتساءل عن دلالة هذه الحقيقة بالنسبة للأخلاق المسيحية . إن سعى المسيحى إلى الكمال حقيقة جوهرية فى الأخلاق المسيحية ، ومالم يسعَ المسيحى ليصل إلى « الإنسان الكامل ، إلى ملء قامة المسيح » فإنه معرَّض أن يكتفى بتغيير محدود فى حياته واتجاهاته ، وتكون النتيجة الحتمية هى التكاسل الروحى والرضا بالواقع الأقل ، أو الرضا بحالة الذات الراهنة ، وهذا يشل نموه الأدبى والأخلاق . والرضا بالواقع فى الحياة الأخلاقية يقود إلى الإذعان للمظالم الاجتماعية وقبولها ، وهذا خطر يهدد الكنيسة ورسالتها فى المجتمع .

إن هناك خطرين يهددان الكنيسة : أحدهما هو الإغراق فى تأكيد خطية الإنسان وعجزه عن الوصول إلى الكمال ، لدرجة تجعل الإنسان يرضى بالواقع الأقل من الكمال ، وبذلك تفتر همّته ويقل سعيه نحو الكمال ، ويرضى عن ذاته وعن مجتمعه ولا يصير ناقداً للمظالم والعيوب الموجودة فيه ... هذا من جانب ؛ أما الخطر الآخر فيتمثل فى الاعتقاد بأن الكنيسة لا ينبغى أن تضم سوى الكاملين أخلاقياً ، وبذلك تسقط الكنيسة فى الكبرياء الروحية ، وتنعزل عن واقع العالم الذى تعيش فيه ، فلا تؤثر فيه ، ويصاب المجتمع بما يشبه انفصام الشخصية .

٣ - الحياة « فى المسيح » و « فى الروح » :

لعلنا الآن اقتنعنا بأن الحياة المسيحية ليست مجرد مصالحة مع الله فحسب ، بل هى صراع ضد الخطية للوصول إلى المحبة الكاملة لله والقريب .

لكن ... كيف يساعد الله الإنسان ليحيا هذه الحياة ؟ يقول « العهد الجديد » ويؤيده الاختبار خلال التاريخ الطويل إن الله يعمل ذلك عن طريق حضور المسيح ، وقوّة الروح القدس أو روح المسيح العامل فى الإنسان ...

إن بعض المسيحيين يركزون فى كلامهم وأفكارهم على جانب واحد من الحقائق المسيحية ، وهو ما عمله الله لأجل الإنسان فى الماضى ، أى فى صليب المسيح ... وكثيرون منهم يعتمدون على كفارة المسيح ومصالحته لهم مع الله وكأنما هذا يكفى ... فتراهم يكتفون بالنظر إلى الوراء إلى ماضيهم ، ويهللون ويشكرون لأن الله فداهم وحررهم من عبودية الخطية ، ناظرين إلى الصليب فحسب كأنما الخلاص مجرد أمر مضى وانتهى ، ويعيشون على هذه الذكرى أو « يجتّرون » تلك الحقائق فحسب ... والبعض يتخذون من رسائل بولس الرسول أساساً لهذا الاعتقاد معلنين أنه « لا شىء من الدينونة على الذين هم فى المسيح يسوع » ... وأنهم اذ قد تبرروا (فى الماضى) بالإيمان فلهم سلام مع الله ... لكننا لو قرأنا

فلقد قال بولس الرسول لأهل فيلبى : « فليكن فيكم هذا الفكر الذى فى المسيح يسوع أيضاً » (فيلبىَ ٢ : ٥) ، أو « كونوا على فكر المسيح يسوع » (الترجمة العربية الجديدة) .

إن الاقتداء بالمسيح هو فى الفكر وليس فى الوسيلة ، فى جوهر الحياة وليس فى المظهر الخارجى ... وهذا يأتى نتيجة لعمل الروح القدس أى بعمل المسيح الذى يحيا فينا بروحه ..

هذا هو أساس الحرية المسيحية . صحيح أن البعض يستبيحون لأنفسهم أموراً لا تليق ، باسم الحرية وعلى حسابها ، لكن هؤلاء يقفون موقف الدينونة تماما كأولئك الذين ينفّذون الحرفيات ويهملون الروح – روح التعليم – أو فكر المسيح ، فهم أيضاً تحت دينونة ، فأساس الحرية المسيحية هو الإخلاص والمعاناة فى البحث عن أفضل طريق يعبّر عن فكر المسيح ، الذى يصف لنا بولس أن جوهره هو التضحية وإنكار الذات والمحبة ...

إن وجود وعمل الروح القدس فينا يؤكد لنا أن الله ليس كائناً بعيداً عالياً – لكنه قريب ومؤثر فى حياتنا . وبعمل الروح تصير المحبة عاملاً فعّالاً فى حياة المسيحى « لأن محبة الله قد انسكبت فى قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا » (رو ٥ : ٥) .

وعندما تنسكب محبة الله فى قلوبنا توقظ فينا المحبة لله والرغبة فى عمل مشيئته . وهذا هو طريق التقديس . فلا تصير الحرية فرصة للجسد لإغرائنا لنخطىء ، بل تكون دافعا لنا لننطلق إلى مجالات لا نهائية غير محدودة من الخدمة والتضحية والمحبة ... وبتعبير آخر لنحيا « ليس حسب الجسد بل حسب الروح » – وهكذا يصير الروح هو « مُقَدِّسُنا » ، فيشهد للمسيح ولمصالحته إيانا مع الله ، فيكون واهب الحياة ومصدر حياتنا الجديدة ... هذا ما يسميه بولس الرسول فى روميه ٧ : ٦ « جِدَّة الروح » أو « نظام الروح الجديد » (الترجمة العربية الجديدة) ويقارنه « بعتق الحرف » أو « نظام الحرف القديم » . وعن هذا يقول أيضاً فى ٢ كو ٣ : ٦ عن هذا العهد الجديد « لا الحرف بل الروح . لأن الحرف يقتل ولكن الروح يُحيى » . « عهد الروح لا عهد الحرف . لأن الحرف يميت والروح يحيى » (الترجمة العربية الجديدة) .

٤ – النعمة الإلهية وحرية الإنسان :

لقد أوضحنا أن الحياة المسيحية التى تبدأ بالتبرير بالإيمان وتسعى نحو الكمال بعملية التقديس ، إنما هى ثمر عمل الله الفدائى فى الإنسان ، ومن الواضح أن عملية الخلاص كلها يبدأها الله ويتابعها الله حتى النهاية . إن هذا الاعتقاد بالنعمة الإلهية اعتقاد أساسى فى اللاهوت المسيحى ، وهو فى نفس الوقت أساسى فى الأخلاق المسيحية . وأول من توسع فى شرح هذه

طبيعته ، إلا أنه لا يمتلك القدرة على ممارسة حرية الإرادة فى اختيار الخير ، ومثله فى ذلك مثل إنسان مكسور الرجلين ، فهو كإنسان يمتلك فى طبيعته القدرة على المشى ، لكنه فى الواقع الفعلى عاجز عن ذلك . لذلك فما لم ترجع إليه الصحة بنعمة الله ، فإنه لن يستطيع أن يتجنب الخطية . ولكنه – بمعونة النعمة – يمكن أن يتخلص من حتمية وقوعه فى الشر ، وتعود إليه حريته كاملة[٢٠] .

لقد كانت نظرة أوغسطينوس إلى محدودية حرية إرادة الإنسان نظرة ثاقبة ، امتاز بها عن كثيرين من الفلاسفة الذين تحدثوا نظريا عن حرية الإنسان – فعلى سبيل المثال يقول « عمانوئيل كانت » (Kant) إن حرية الإرادة مبدأ أساسى مفترض من مبادىء العقل العملى ، لأن التعبير « ينبغى علىَّ أن أعمل كذا » أو « يجب علىَّ كذا » يتضمن إمكانية تحقيق هذا الواجب . فإذا كنت أقول « ينبغى علىَّ » فإن ذلك يستلزم إمكانية القول : « إننى أقدر على عمل الشىء » – ولا يُطالَب الإنسان إلا بما تكون لديه القدرة على عمله .
هذا المنطق سليم نظرياً ... ولكنه يصطدم مع الواقع أحياناً . فالمدمن على الخمر مثلا يعرف أنه « ينبغى عليه » أن يترك الخمر ، ولكن هل يستطيع فى الواقع أن يفعل ذلك بإرادته ؟

إن علم النفس – وبخاصة مدرسة علم النفس التحليلى – كشفت لنا أن جهد الإرادة الواعى ليس له تأثير على أعمال وعادات متسلطة على الإنسان إذا كان مصدر هذه الأفعال أو العادات كامن وراء الشعور أو العقل الواعى للإنسان . ولقد كان أوغسطينوس محقا فى دعواه أن الإنسان لا يستطيع أن يستخدم حرية إرادته استخداماً فعّالاً إلا إذا كُسِرت سلطة الخطية التى تسوده ... أو بتعبير آخر لن يستطيع أن « يريد » الخير الأسمى وهو محبة الله ومحبة القريب إلا إذا رفعته نعمة الله وانتشلته من محبة الذات .

إلا أن القديس أوغسطينوس لم يكتف بالقول إن الإنسان الطبيعى لن يقدر على اختيار الخير حتى تشفى النعمة إرادته ؛ ولكنه ذكر تعبيراً آخر وهو أن نعمة الله لا يمكن للإنسان مقاومتها . (Irresistible) وهو يربط بين هذه الحقيقة وعقيدة « التعيين السابق » (Predestination) ... وبهذا يكاد يلغى حرية إرادة الإنسان حتى بعد أن تشفى نعمة الله هذه الإرادة . وإن كان أوغسطينوس لم يقرر ذلك ، بل قال إن النعمة تتعاون مع المؤمن عندما يريد ذلك[٢١] ، ولكن مضمون هذا القول إن حرية الإنسان تصبح واهنة هزيلة حتى بعد التجديد . وكأنما دور الإنسان هو مجرد الموافقة على ما سبق الله أن قرره ...

ونحن لا ننصح بقبول افتراضات أوغسطينوس حتى نهاية مداها ، ولكننا نؤكد الحقيقة أن

فى هذه الشركة الجديدة ، التى يُعبَّر عنها بالكنيسة ، اعتبر المسيحيون المسيح ربّاً ، واعتُبِرتَ الكنيسة نفسها جسداً للمسيح ، وهو رأسها غير المنظور ، وبهذه الصفة تكون هى استمراراً لعمله الذى بدأه فى حياته على الأرض – والشركة فى الكنيسة هى شركةٌ فيه ومعه . وقد وصفها المسيح نفسه فى تشبيه يؤكد الوحدة التى لا تقبل الانفصال بقوله : « أنا الكرمة وأنتم الأغصان » (يو ١٥ : ٥) . وفى نفس الوقت كانت الكنيسة منذ نشأتها شركة الروح القدس الذى أرسله المسيح للكنيسة منذ يوم الخمسين برهانا على أنه حاضر فيها واهبا إياها بركاته وهباته ومواهبه ، فقد كان الروح القدس هو مصدر حياة الكنيسة الجديدة ومحبتها وسلامها وبهجتها .

ومادام المسيحيون قد اعتبروا الكنيسة المجال الذى يستمر فيه عمل المسيح الواهب حياة وعمل الروح القدس المانح القداسة ، لذلك وصفت الكنيسة بأنها « مقدسّة » ، ولا يعنى هذا أن أعضاءها أسمى أخلاقيا ممن هم خارجها – ومع أنه من المفروض والمطلوب أن يكونوا هكذا ، لكن الواقع قد يكون أحياناً غير ذلك – وإطلاق صفة القداسة على الكنيسة لا يرجع إلى واقع حياة أعضائها ولكنه يرجع إلى أنها مجال عمل الروح القدس ، وإمكانية السمو بحياة أعضائها إذا تجاوبوا مع عمل الروح القدس فى حياتهم ؛ كما يرجع أيضاً إلى أنها جماعة جاءت إلى الوجود نتيجة عمل الله الفدائى وتعتمد على الروح القدس فى حياتها ، فهى مجتمع النعمة الشاعر بضعفه ، الشاكر لمحبة الله ، والشاهد لذلك[٢٢] .

فالحياة المسيحية تظهر عادة فى المؤمن وينمو المؤمن فيها من خلال حياة الكنيسة التى تغذيه فى كل مرحلة من مراحل حياته . والكنيسة هى التى تحمل الإنجيل وقد حفظت إعلانات الله التى أعلنت عبر الأجيال حتى قمة هذا الإعلان فى يسوع المسيح وعمله وحياته ، وهى التى تواصل رسالة الإنجيل من جيل إلى جيل بالوعظ والتعليم – وهى أيضاً الشركة التى من خلالها وعن طريق عمل النعمة تظهر ثمار الإيمان الأدبية والأخلاقية فى الحياة – ولذلك فالكنيسة تعين المؤمن على معرفة الإنجيل وتطبيق مبادئه عمليا فى الحياة . ومن خلال شركته فى الكنيسة يفهم معنى المحبة ويتجاوب مع ندائها ، وبذلك نرى أهمية الكنيسة للمؤمن فى حياته الروحية والأدبية .

لذلك فإن ما ينادى به البعض من أن الفرد المسيحى هو أساس الكنيسة المسيحية وأن الكنيسة هى مجموعة أفراد اختبروا المسيح فردياً وشخصياً وتجمعوا بإختيارهم وباستقلاليتهم فى جماعة هى الكنيسة – يبدو انه رأى غير سليم وغير واقعى ... صحيح أن الفرد يقبل الإيمان ويتجاوب مع عمل النعمة كفرد باختياره الحر ... ولكن هذا الإيمان عينه ، وعمل

يشتركون معه فى الإيمان والحياة ، ويجد ذلك أيسر وأسهل من محبته لغيرهم ؛ لكن المسيحى يجب أن يحذر من الإسهام فى صيرورة الكنيسة مجتمعا منغلقا على ذاته – ومن المؤسف أن كنائس كثيرة فيها هذا العيب الخطير الذى يتنافى مع روح المحبة المسيحية . (وفى دراسة أخرى سنجد تفصيلا لمعنى المحبة المسيحية) .

إن الكنيسة – وإن كانت جماعة وشركة روحية ، من خلالها تعمل نعمة الله فى أفرادها ، لكنها فى نفس الوقت جزء من النسيج البشرى . وكثيراً ما تتعرض الكنيسة لخطية الكبرياء الجماعية ، وتكون جماعة طاردة للغير ، فى الوقت الذى يجب فيه أن تكون ملحاً للأرض ونوراً للعالم وقلباً كبيراً يعبّر عن طبيعة الآب السماوى الذى يفتح صدره للجميع ، ويشرق شمسه ويرسل مطره على الجميع بلا استثناء .

ونتيجة لهذا الإنغلاق فإن الكنيسة تنشغل أكثر مما ينبغى بحياتها الداخلية ونظامها وصالحها الخاص ونشاطاتها المحدودة ، وبذلك تنعزل عن حياة ومشكلات المجتمع الذى تعيش فيه ، فتفقد رسالتها وتتخلى عن مسئوليتها إزاء العالم . وهى إما أن تحوّل أعضاءها إلى سلبيين ومنغلقين عن العالم الذى يعيشون فيه ، فتصبح شخصية المسيحى باهتة غير مؤثرة ؛ أو أن تخلق فى أعضائها نوعاً من انفصام الشخصية ، فيعيش الواحد منهم بشخصية فى داخل الكنيسة واجتماعاتها ونشاطاتها ، وبشخصية أخرى فى نواحى حياته الاجتماعية خارج الكنيسة – وكلا الأمرين خطر على النمو الروحى والاجتماعى للفرد ، وإضعاف لرسالة المسيح فى العالم .

(٣) وواجب الكنيسة الأخلاقى الثالث هو الخروج بالرسالة المسيحية إلى العالم – إن عمل الله الفدائى مستمر فى العالم ، وقوى الشر تعارضه ، لذلك فالكنيسة هى التى يجب أن تنشر رسالة المسيح فى العالم ، والملح الذى يجب أن يذوب لإصلاح حياة العالم ، والنور الذى يجب أن يضىء ظلماته . إن رسالة الكنيسة غير قاصرة على الصلاة لأجل العالم ، بل الخروج إليه – وويل للمستريحين فى الكنيسة ! ! ... إن لهم عملاً يجب أن يؤدوه .

(٤) وفى خروج الكنيسة خارج جدرانها إلى العالم الخارجى ، نجد أيضاً مسئولية الكنيسة فى العمل الاجتماعى . إن محبة القريب لا يجب أن تنحصر فى مجرد علاقات شخصية بين أفراد ، ولكنها يجب أن تترجم فى العلاقات الجماعية بين الطبقات والأجناس والشعوب فى صورة العدالة الاجتماعية ، والثورة على الشرور الاجتماعية لتحقيق الخير والعدالة والمساواة لمختلف الطبقات والجماعات .

لأنها تبدو كأنها تجمع مظاهر أو صفات متناقضة وعلى سبيل المثال فهى تهتم بهذا العالم وفى نفس الوقت تهتم بالعالم الآخر ... والإنسان يحيا حياته فى الزمن ، لكنه فى نفس الوقت متعلق بالأبدية التى لا زمن لها ، ومن الناحية الأخلاقية نستطيع أن نرى وجهين للحق ، وكلاهما صحيح وهام . فالمسيحى يسعى نحو القداسة أو الصلاح الكامل ، وفى نفس الوقت يسعى إلى ذلك لا بالانطواء والاعتزال عن هذا العالم ولكن بتأدية مسئولياته فى عائلتة ووظيفته ومجتمعه ، وكل هذه مشوبة بالنقص ، وتعرّضه للخطأ ... لكنه إذا إنعزل واعتزل يتعرض أيضاً لأنواع أخرى من الخطأ . لذلك فعليه أن لا يحتقر مسئولياته اليومية التى قد يشعر أنها أقل مستوى من تطلعاته الروحية . إنه يجب أن يصلى ليتحقق ملكوت الله على الأرض ، وفى نفس الوقت يحيا كعضو فى هذا الملكوت ويسعى لكى يقود غيره إلى حياة الملكوت فى أثناء حياته وحياتهم على الأرض – ويلاحظ البعض أن مسيحية القرون الأولى والوسطى أهملت الحياة فى هذا العالم تحت تأثير انتظار الحياة الأخرى والنزعة إلى الزهد والتقشف فى هذا العالم . ومن مزايا مسيحية العصر الحديث أنها أعادت الاهتمام بقيم هذه الحياة فى هذا العالم . ورغم ذلك فالمسيحى يجب أن يتخطى الحاضر فى نظرته ويتطلع إلى المستقبل بإيمان ورجاء ، فإن الحياة هنا مشوبة بالنقص والقصور ، وتطلعات المسيحى الأخلاقية والاجتماعية لن تتحقق هنا بالكمال المرجو ، لأن قصور الفرد المسيحى نفسه ومقاومة الغير تحد وتقلص من مسيرة التقدم نحو الكمال ... وأحياناً يخيَّل إلى الإنسان أن الموت يعوقه عن تحقيق آماله بالنسبة لتطلعاته نحو الكمال . إنه يرى أمامه صورة للكمال لكنه لا يستطيع أن يصل إليها ، وما أشبهه بموسى الذى سمح له الله أن يصعد إلى رأس الفسجة ويرى أرض الميعاد التى جاهد للوصول إليها ، يراها بعينيه ، لكنه يُحرم من الدخول إليها (تث ٣ : ٢٧) .. لهذا فإنه رغم أهمية الاهتمام بمسئولياتنا فى هذا العالم ، فإن من الضرورى أن يُدعَّم هذا الاهتمام برجاء الحياة الأبدية .

وحياة المسيحى تتميز بالسلام والفرح ، لكنها أيضاً حياة جهاد وألم . ولقد أوضح بولس الرسول أن الفرح وهو من ثمر الروح القدس ، يمكن أن يناله المسيحى بالألم وإنكار الذات ، كما شرح لنا السيد المسيح الحياة عن طريق الموت ...

فالسلام والغبطة من المظاهر الجوهرية للحياة المسيحية . والغفران يطرد القلق الذى يصاحب الخطية ، وإذ يتصالح الإنسان مع الله ، ينال سلاماً معه ، ومع نفسه ومع قريبه – وهكذا ينال نصيبا فى الشركة مع الله وهو خيره الأسمى وفرحه الحقيقى ... إلا أن هذا لا يعنى أن حياة المسيحى تتميز بمشاعر السلام والفرح دائماً ، ذلك لأن حياة الإنسان فى صراع دائم مع الشر من الداخل ومن الخارج ، لذلك لا نتوقع أن يعيش المسيحى حياة

مراجع الباب الثالث

الإنسان في المسيحية

(1) Baker, Hershel, **The Dignity of Man,** Cambridge: Harvard University Press, 1947.

(2) Huxley, Julian, **Man Stands Alone,** New York: Harpers, 1941.

(3) Niebuhr, R., **The Nature and Destiny of Man,** Vol. I, New York: Scribners, 1941, p. 152

(4) Ibid., p. 181

(5) Brunner, Emil, **Man in Revolt,** Westminster Press, 1947, pp. 319 - 322

(6) Thomas, George, **Christian Ethics and Moral Philosophy,** New York: Charles Scribners Sons, 1955, pp. 165 - 166

(7) Niebuhr, R., **The Children of Light and the Children of Darkness,** New York: Charles Scribners Snow, 1944, pp. 20 - 22

(8) Acquinas, **Summa Theologica,** I - II, p. 85

(9) Niebuhr, R., **Nature and Destiny of Man,** Vol. I p. 269

(10) Acquinas, op. cit., p. 80

(11) Rauschenbush, W., **A Theology for the Social Gospel,** New York: Macmillan, 1918, chs. 8, 9

(12) Temple, William, **Christianity and Social Order,** New York: Penguin Books, 1941, p. 14

(13) Brunner, Emil, **Man in Revolt,** Westminster Press, 1947, pp. 131 - 132

(14) Niebuhr, op. cit., I, ch. 7

(15) Thomas, George, op. cit., pp. 185 - 189

(16) Niebuhr, R., op. cit., I. ch. 9

(17) Temple, William, **Nature, Man and God,** London: Macmillan Co., Lectures 9, 11

(18) Aulen, Gustav, **The Faith of the Christian Church,** Philadelphia: Muhlenberg Press, 1948, p. 290

(19) Ibid., pp. 242 - 243

(20) Augustine, **On Nature and Grace,** ch. 57

(21) Augustine, **An Grace and Free Will,** ch. 10